كرمال كسّار

ولد كرمال كسّار بمالطة وتحصّل على الأستاذيّة في الفنون بجامعتها (1980) كما تحصّل من جامعة كامبريدج على الماجستير في الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة (1989) وعلى الدكتوراه في التاريخ (1995). وعمل طويلا محافظا للتراث التاريخي المالطي، واعتنى بتطوير شعبة الإثنوغرافيا بقسم المتاحف في مالطة وذلك من سنة 1993 إلى سنة 1999.

وهو حاليًا استاذ مساعد في التاريخ بجامعة مالطة وعضو في الجمعيّة التاريخيّة الملكيّة بلندن، وفي جمعيّة الكومنوالث بكامبريدج، وهو عضو أيضا بالمعهد الأنثروبولوجي الملكيّ.

من بين مؤلّفاته (جميعها باللغة الانجليزية) :

Fenkata: An Emblem of Maltese Peasant Resistance (1994) ; *Witchcraft, Sorcery and the Inquisition* (1996) ; *Sex, Magic and the Periwinkle* (2000) ; *A Concise History of Malta* (2000) ; *Society, Culture and Identity in Early Modern Malta* (2000) ; *Daughters of Eve. Women, Gender Roles, and the impact of the Council of Trent in Catholic Malta* (2002).

9 784036 901210

ك. كسّار

في معنى الشرف

18

في معنى الشرف

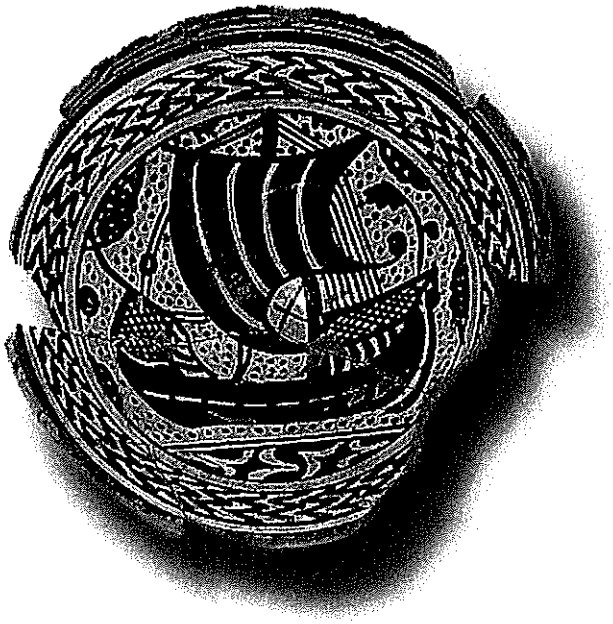

ألـيـف • الجمهورية التونسية
منشورات المتوسط
دار الفرجاني • ليبيا
منشورات زرياب • الجزائر

ك. كسّار

توجد **الموسوعة المتوسطية** اليوم في خمس طبعات : الانجليزيّة والعربيّة والاسبانيّة والفرنسيّة والإيطاليّة، وهي انتاج مشترك نابع من شراكة بين ناشرين مختلفين ومؤسّسات بحث منتمية إلى ضفاف البحر المتوسّط.

إنّ الهدف المشترك في الأصل كان التحقّق من أن المتوسّط - بما يميّزه من تشعّبات واختلافات وتوترات - يمثّل مجموعة قابلة لأن تكون موضوع تحليل وبحث إلاّ أنّ التنظيم الحالي للمعارف يسير في اتجاه معاكس لهذه الفرضيّة، إذ أن جزءا قليلا من البرامج التعليميّة في وقتنا الحاضر تتعلّق به، سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة. ويؤكّد تقدّم الأبحاث وما تمّ نشره من أعمال أنّ هذه المحاولة معقولة.

ومع التجربة المكتسبة من خلال نشر عشرين مؤلّفا كمرحلة أولى من برنامج يضمّ ستّين عنوانا، فإن الاشكاليّة المتوسّطية تطرح علينا يوما بعد يوم أسئلة جديدة، نظرا للتطوّرات السريعة التي تشهدها اليوم المسارات السياسية والاجتماعية والثقافية.

وتسعى **الموسوعة المتوسطية** في مغامرتها إلى اتّباع محورين أساسيّين : محور «التاريخ»، بهدف تعميق المعارف بخصوص الهويّات التاريخيّة والتراثات الثقافية والفنّية الهامّة والأساسيّة للحصول على نظرة شاملة للبلدان الحاليّة وللتعرّف - من خلال الأطوار التاريخيّة الحديثة والاستعمار - على جذور التوتّرات المعاصرة. أمّا محور «الزمن الحاضر» الذي يفسح المجال للعلوم الانسانيّة والاجتماعيّة، مع نظرة انثروبولوجيّة واقتصاديّة، فهو يهدف إلى تحليل التغيّرات والتحوّلات لرصيد متوسّطي مشترك ويبحث بالخصوص في طبيعة الإشكاليّات الحسّاسة والمسؤوليّات الدولية.

لقد أضحى المتوسّط أحد المراكز المتأثّرة أكثر بمسار العولمة ممّا يحتّم علينا الاهتمام بالعلاقة بين ما هو محلّي وما هو عالميّ ويفرض علينا أن نواجه تحدّي حوار الثقافات.

صدرت الموسوعة المتوسطية بمساهمة من الاتحاد الأوروبيّ.

الموسوعة المتوسطية

م.م

سلسلة
الزمن الحاضر

مؤلفات الموسوعة المتوسطيّة
تصدرها حاليا دور النشر التالية :
أليف - منشورات المتوسط - تونس
أديسود (Edisud) - فرنسا
منشورات جاكا بوك (Jaca Book) - إيطاليا
CIDOB-Icaria - إسبانيا
دار الفرجاني - ليبيا
منشورات زرياب - الجزائر
Midsea Books - مالطا

العلوم، التربية والثقافات في المتوسط موسوعة المتوسط

موسوعة المتوسط
أنجزت بمساعدة مالية من اللجنة الأوروبية
- برنامج التراث المتوسطي -

مسؤول المشروع :
السيد ميشال بروندينو، مدير العلوم
والتربية والثقافات في المتوسط

كرمال كسّار

في معنى الشرف

(Le sens de l’honneur)

نقله إلى اللغة العربية

أحمد الصمعي و محمد بن مراد

أليف

زرياب

الفرجاني

2004 ©
الطبعة العربية
أليف-منشورات المتوسط
منشورات زرياب، الجزائر
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة العربية الأولى
جانفي 2004

الغلاف والتصميم
أليف-منشورات المتوسط

تم إنجاز الموسوعة المتوسطية بمساعدة من الجمعية الدولية سيكوم SECUM، العلوم والتربية والثقافة في البحر المتوسط (المقرات في آكس ان بروفانس Aix-en-Provence وتونس والدار البيضاء وميلانو).

الترقيم الدولي الموحد للدوريات أليف : ISSN 0330 60 46 (coll.)
الترقيم الدولي الموحد للكتاب أليف : ISBN 9973-22-189-3

الفهرس

1. مدخل
ص. 7

2. الشرف والمافيا في صقليّة
ص. 19

3. الشرف والقيم الإجتماعية في الأندلس
ص. 33

4. السّراكتسانيون : الشرف والقيم
في جبال اليونان الشمالية
ص. 51

5. الشرف في المجتمع البدوي
ص. 63

6. نظرة شاملة
ص. 77

7. التمدين وتغيّر دور الشّرف
ص. 83

8. ملامح عامّة
ص. 87

ببليوغرافيا
ص. 93

مراكز الدراسات والبحث
ص. 95

1. مـدخـــل

المفهوم الثقافي للشرف

لقد صارت كلمة «شرف» ترمز لأنواع عديدة من القيم الإجتماعية والجنسية والإقتصادية والسياسية، وهي تختلف من ثقافة إلى أخرى، إلاّ أنّه لا يجب ان نستهين أبدا بأهمية ذلك الإختلاف. في منطقة البحر الأبيض المتوسط يقوم الشرف مع الحياء بدور جوهري في حياة أغلب المجتمعات المحيطة بالمدن. وقد صار بذلك أحد الموضوعات الأكثر بحثا من طرف الأنثروبولوجيين في البلدان المتوسطية، مع تكريس الإهتمام كثيرا بدراسة الشرف باعتباره ظاهرة اقتصادية.

إن مفهوم الشرف يوجد في كلّ المجتمعات، وغالبا ما يقع ادراكه باعتباره القيمة التي يحظى بها الفرد في الجماعة التي يعيش بينها. وعلى كل فإن المصطلح يمكن ان يكتسب دلالة تختلف باختلاف المجموعات واختلاف المجتمعات : وذلك يعني ان الشرف يختلف من منطقة إلى أخرى ومن جماعة إلى أخرى. وهو بالأخصّ

يحمل معه دلالات ضمنية مختلفة في طبقات اجتماعية متباينة. وهو أكثر من مجرّد وسيلة للتعبير عن الموافقة أو عدم الموافقة تجاه سلوك معيّن، وغالبا ما يزكّي نفسه بالإستناد إلى الأفعال. وهذه الخاصيّة يمكن ان تساعد على تفسير السبب في أن العرفان الرسمي لقيمة شخص ما، غالبا ما يبدو متعارضا مع بقية المجتمع. أما عندما يكون محلّ عرفان بالإجماع فإن مفهوم الشرف لا يشكّل معضلة أبدا. ومع ذلك فإن هذا الإستدلال غالبا ما لا يلقى اعتراضا في العادة، لأن قيمة فرد ما في مجتمع ما، لا تتوافق مع نظرة الفئة الحاكمة ولا مع نظرة الفئات الأخرى داخل نفس المجتمع. ومن الممكن أن يكون ذلك ناجما عن التباين في تقييم الأدوار الإجتماعية. وفعلا فإن الصفات الضرورية لممارسة السيادة في مجتمع ريفي ضحوي غالبا ما تكون مختلفة عن تلك الأخرى المتوقعة في المركز الإداري للمجموعة.

ونتيجة لذلك فلا بدّ من التمييز بين الشرف باعتباره طريقة سلوك والشرف باعتباره صفة : فالدولة قد تحمل على اسناد التشريف لأشخاص يشاركون الفئة الحاكمة نظرتها ولكن ذلك لا يعني بالضرورة ان الأشخاص الذين وقع تشريفهم يحظون باحترام بقية الأهالي. فالإنتساب الى الرفعة والوجاهة هو إذن نسبي ويتضمّن دائما مقارنة تتسامى على الآخرين. فواضح انه حيثما كانت هناك مراتب شرفية فإن الشخص الذي يخضع لأفضليّة الآخرين يعترف بدونيّة منزلته.

يمكن الإعتراض بأن كلّ سلطة سياسية تزعم انها تجسّد القيم الأخلاقية للمجتمع الذي تحكمه. وهي تفترض

القدرة على الأمر بما هو صواب والنهي عمّا هو خطأ. وبالتالي فهي تطالب بحقّ اسناد التشريفات؛ ممّا ينتج عنه ان الأفراد المشرّفين من قبل المجتمع هم شرفاء. هذا الإستدلال يستتبع ان الشرف ليس بالضرورة صفة فردية بل هو غالبا ما يكون مرتبطا بالتكافل الإجتماعي.

وهي عادة مألوفة لدى الفئات الإجتماعية، ان يكون لها شرف جماعي يشترك فيه كلّ الأعضاء ؛ وذلك متأصل في المجموعات المتوسطية ويفترض ان السلوك الشائن لعضو في المجموعة ينعكس على شرف الجميع. في حين ان الفرد يساهم في شرف مجموعته. وبالتالي فالشرف يتعلّق بالفئات الإجتماعية التي هو بالنسبة اليها متصل بالوفاء نحو رئيس المجموعة، سواء تعلّق الأمر بنواة العائلة أو بزعيم الأمّة، الذي يتولّى فعلا تمثيل الشرف الجماعي بكامله. وأخيرا فهو يصلح لتحديد الوفاق الإجتماعي الذي يجب ان يكون نظام الأفضلية متعلقّا به. بهذه الطريقة، إذن، يتبيّن ما هو مقبول، بالإحالة إلى ما هو مرضي.

وبصفة جوهرية فإن الأقوال أو الأفعال سواء بسواء لها دلالتها ضمن قانون الشرف، حيث انها تعبير عن موقف ينسب إلى نفسه الشرف أو يمنحه أو ينفيه. إن أقصى مظاهر الشرف تتمثل في العنف المادي : عندما تفشل الوسائل الأخرى، فواجب تجديده قائم، ليس فقط ضمن قانون الشرف الشكلي بل أيضا داخل الوسط الإجتماعي الذي يرفض ذلك القانون. إن الإنسان مسؤول عن شرفه الخاص أمام نظرائه فقط. أي أمام اولئك الذين يمكن له نظريا ان يتنافس معهم. وذلك متأصّل في أغلب أقسام

المجتمع بنسبة صغيرة في العالم كلّه. إن الإحساس بقيمة الشرف في منطقة البحر الأبيض المتوسط يصل إلى درجة ان عديد الجماعات أقامت نظاما متكاملا من السلوك مبنيا على مفهوم الشرف عندهم.

الشرف والقيم المتوسطية

إن الشرف في المجتمعات المتوسطية والجنوبية مرتبط بالسمعة والجنس. والشرف، بصفة عامة، متصل بالحفاظ على المجموعة العائلية. فإلى زمن قريب وفي كل مكان من البحر المتوسط، كانت المجموعة العائلية (أو العائلة حسب المصطلح الغربي) تعتبر الوحدة الأساسية للإنتاج والإستهلاك، والملكية والتواصل الإجتماعي والمساندة المعنوية والتعاون المتبادل. ونتيجة لذلك كان مفهوم الشرف يكتسي دورا ذا أهميّة حيويّة ضمن القيم الثقافية للمجتمعات المتوسطية، سواء كانت مسيحية أو اسلامية.

وكان الشرف إلى جانب ذلك متصلا بقيم الجنس، مثل زواج القربى، والحماية في مسائل بسيطة كالشتيمة والثأر، التي كانت تتخذ تعلّة لدعم الطموح إلى الهيمنة أو لفرض الإذلال من خلال منع تحقيقها. فلا غرابة ان يكون الشرف والحياء محلّ اهتمام وطيد ضمن المجتمعات المتوسطية الصغيرة، خاصّة لأن للعلاقات المباشرة فيها أهميّة كبرى.

إن الشرف يكمن، تقليديا، في العائلة أو في النسب وينتقل من جيل الى جيل بالوراثة. ويمكن للأعضاء

الفرادى الزيادة في مقداره بسلوك مثالي أو محوه بسلوك شائن. وقد أكد جوليان بيت ريفرز – (Julian Pitt-Rivers) ان «الشرف هو قيمة الشخص في نظر نفسه، ولكن أيضا في نظر المجتمع الذي يعيش بينه» : انه تقدير قيمته الخاصة، «فهو فخره المعلن، وهو أيضا الإعتراف بذلك الإعلان وبامتيازه المعترف به من طرف المجتمع وبحقه في الإفتخار».

ان هذه الطريقة في التفكير لها تأثير هامّ في البدو من أولاد علي بالصحراء الغربية الذين يعتقدون ان الأخلاق المبنية كليّا على قيم الشرف والتواضع هي خيرما يميّزهم ويجعلهم أحسن من الشعوب الأخرى. وقد لاحظ الأنثروبولوجيون خلال السنوات الماضية، ان الشرف يقيم علاقة بين المثل العليا للمجتمع وبين تولّدها عند الفرد من خلال طموحه إلى تمثيلها. وبجانب ذلك فإن «من ينتسب إلى الشرف يجب ان يجعل نفسه مرضيا حسب تقديره لذاته، وان يضمن لنفسه سمعة طيبة، وإلاّ فإن انتسابه يغدو غرورا خالصا» ويجعل من نفسه موضوع استهزاء. إذن، فالشرف يتجلى عموما في مظهرين : تحديد قانون للسلوك، على الأفراد ان يلتزموه ؛ أو تضخيم الدور العائد للعلاقات الإجتماعية القائمة بين مختلف الأطراف في المجتمع. والقيمة التي تسند لواحد أو الآخر من المظهرين لها تأثير على الدلالة الخاصة للشرف في مجتمع معيّن.

إن مفهوم الشرف عند الرجل يدور حول معاني الهيبة الجسدية والوفاء والإستقامة، أمّا عند المرأة فالشرف هو

أساسا عامل جنسي. يؤكد دافيد جيلمور (Gilmore David)، في البحر المتوسط، وجود اسطورة «سيطرة الذكر» التي تبرز من اعتبار النفوذ الإجتماعي واختلاف الجنس. ان مثل هذه السيطرة الذكرية يمكن ان تعكس الحاجة إلى تعويض تماثل بيولوجي لا غنى فيه عن النساء بالمراتبية الإجتماعية. غير أنه على الرجال ان يثبتوا شجاعتهم وقدرتهم على الدفاع عن شرفهم الخاص، وذلك ليبرهنوا على انهم جديرون بلقب عائلتهم. ويجب عليهم، عدا ذلك، ان يكونوا قادرين على قيادة مجموعتهم العائلية الخاصة بحكمة ومسؤولية. ومع ذلك فإن دور المرأة هو الذي يقع تضخيمه كثيرا في ظواهر الشرف والعار. وأساس ذلك هو الإعتقاد بأن دور المرأة متجه خاصة نحو تأمين بقاء المجموعة العائلية من خلال توالدها والحفاظ على نقاء النسب من خلال عفّتها الذاتية.

إلاّ ان الشرف، في المجموعات التقليدية الصغيرة، اما ان يكون وسيلة لتقدير القيمة المعنوية لشخص ما في تمثيله الخاص في نطاق العائلة أو تقديرا للأفراد باعتبارهم شخصيات عمومية على الساحة الإجتماعية. إذن، ومع ان للرقابة على الجنس دورا هاما، فإن ظواهر الشرف والعارلا تهتمّ مبدئيا بالجنس : فالشرف يعين على الترتيب الطبقي لمختلف طوائف المجموعة؛ مع ان ذلك الترتيب يشكّل نسقا تصنيفيا مبهما. وفي هذه المجموعات يقع اعتبار الرجال بطريقة مختلفة عن النساء. وأخيرا، فإن الشرف والعار لا يتوقّفان في ذاتهما على الثروة أو على النفوذ الإقتصادي. ومع ذلك فإنه من

الجائز ان توافر هذين المعيارين تحدّده الوضعية الإقتصادية لمن يوجد في نطاقها.

إن الإعتبارات السابقة تشير إلى ان الشرف هو بالأساس الحكم على قيمة شخص ما في المجتمع، وهو قائم على كيفية تقدير الآخرين له وتقديره هو لنفسه. ومع ذلك، فالبرغم من ان الشرف راجع بالنظر إلى حكم الناس فإنه في الحقيقة اكثر غموضا والتباسا. كيف يمكن تعريف الشرف إذن ؟ الشرف هو بالأساس انتساب الفرد إلى مقامه الخاص في المجتمع. وهو بهذا المعنى مفهوم سياسي لأنه لا يتعلّق فقط بالآخرين، بل هو يؤثر أيضا في الآخرين. ويمكن القول بأن الشرف والحياء هما، على العموم، مرتبطان بمفهوم الحفاظ على المجموعة العائلية.
إن الشرف معرّض دائما للخطر من طرف الغرباء أكثر من أعضاء المجموعة العائلية، والحريم اكثر تعرّضا له. والشرف، بطبيعة الحال، يتطلب التبادل، بحيث تجب حماية الإنتساب اليه وإلاّ تمرّغت المجموعة في العار. فالعار والفضيحة يقابلان، إذن، الوجه الآخر من المعادلة، نظرا لكونهما كليهما مفهومين اجتماعيين. والحقيقة، مع ذلك، ان هذه الطريقة في النظر إلى ظاهرة الشرف والعار لا يمكن تطبيقها على كلّ المجموعات في البحر المتوسط، حيث انها تختلف من مجتمع إلى آخر. لذلك، وعلى العموم، فالرجال المتوسطيون عليهم واجب حماية الشرف، بينما يجب على النساء القيام بما في وسعهنّ لتجنّب العار. وهذا، على سبيل المثال، ما

نلقاه بجلاء عند الرعاة السّركتسانيين في شمال اليونان، الذين تولّى جون كامبل (John Campbell) دراستهم. فالرجال، عند السّركتسانيين، يمتلكون «الأندريسموس» [*andrismos*] (الرجولة) ويجب بالتالي ان يكونوا شجعانا وأقوياء وذوي كبرياء وعصبيين. وفي نفس الوقت ينتظر من النساء ان يتّصفن بـ «الأنتروبي» [*entropi*] (الخوف من الفضيحة)، ويتطلب منهنّ ان يكنّ طاهرات التفكير والتعبير، متواضعات وحسّاسات نحو العار، وعفيفات. ينتج عن ذلك ان الشرف عند السركتسانيين يحقّقه الرجال الذين هم ايجابيون، بينما الحياء تحقّقه النساء اللاتي هنّ سلبيّات. هذا التصوّر، لو عمّمناه على كامل منطقة البحر المتوسط، يؤيد النظرية القائلة بأن واجبات الزوج هي ذات طبيعة اقتصادية وحقوقه ذات طبيعة جنسية (لأنها تقدّم له خدمة منزلية). وفي نفس الوقت فإن واجبات الزوجة هي ذات طبيعة جنسية، وحقوقها ذات طبيعة اقتصادية (نظرا إلى انه لا يطلب منها العمل خارج البيت العائلي).

فالرجولة والحياء، إذن، متكاملان : بما ان الرجال يحمون شرف النساء من الإعتداءات الخارجية، فيجب على النساء ان يمتلكن الشعور بالحياء، حتى يكون شرف الرجال محلّ احترام. ونتيجة لذلك فإن دور الرجل يدور حول الإنتساب للشرف، بينما يتمثّل دور المرأة في الحفاظ عليه. بعبارة أخرى، يجب على النساء صون الشرف وحمايته، إذ من المقرّر انه ينتقل من الأم إلى ابنتها. على هذه الحال فإن ظاهرة الشرف والعار مرتبطة

ارتباطا وثيقا بردّ فعل الفرد تجاه المجتمع. يبدو ان هذه المقاربة تؤيد القولة الشائعة بين بربر القبائل التي تقول ان «الإنسان هو ما هو من خلال الناس، الله وحده هو ما هو من خلال الله»، أي ان شرف انسان ما متعلّق لدرجة كبيرة بردّ فعل المجموعة.

يكتسب الشرف من خلال السيطرة على الأشخاص اكثر من السيطرة على الأشياء. وهذا يستتبع ان ظاهرة الشرف تعمل ضدّ التراكم الرأسمالي للممتلكات. فالشرف يتكوّن من قيمة شخص ما، كما تظهر اجتماعيا وكما تبدو له هو نفسه. كما يتضمّن الشرف كثيرا من التقدير الذاتي ويتميّز بمراقبة الرجال لجنسانية النساء. ان لغة الشرف لغة سياسية تستعمل لتصوير تقاسم النفوذ والثروة، فهي تحمل إذن قيمة استراتيجية كبرى. والشرف، بجانب ذلك، يوحي للإنسان بتصرّفات دمويّة كالقصاص والثأر، ترفضها المجتمعات المدنية المتطورة.
ان الفروق بين الشرف ومفاهيم المقام الإجتماعي والوجاهة هامّة وحقيقية : الوجاهة متصلة عموما بالثروة، خاصة إذا كان الأمر متعارفا جدا بين الناس حتى ولو أنكره المالك. الشرف يمكن ان يضيع. وعلى العكس من ذلك، فإن المقام الإجتماعي يتسامى بالنسب، أو يغنم، وبالتالي فلا يمكن ان يضيع. والخلاصة ان الشرف يحيل إلى ذاته، لأنه ينطلق من ادراك الشخص لنفسه بنفسه.
في بلدان البحر الأبيض المتوسط يتحدّد الشرف بقيامه بدور جنسي، وإذن، حيث لا تمكن مهاجمة الوجاهة أو المقام الإجتماعي لشخص ما، فإن الشرف معرّض جدا

لذلك، وغالبا ما يكون موضع شكّ نتيجة لطبيعته كـ «بناء اجتماعي». فالشرف والعار هما، إذن، اهتمامان راسخان في المجتمعات الصغيرة المتوجهة غالبا نحو الداخل، حيث يكون الفرد تحت الأنظار. والمجتمعات، سواء ذات المجموعات النخبوية التقليدية، أو تلك التي تخلو عادة من مراتبيّة اجتماعية، تهتمّ بالشرف. فهناك، إذن، توكيد على الإختلاف بين مفهوم «مجتمع» ومفهوم «مدينة» أي بين قوانين الأشخاص وقوانين الأشياء. ف «المجتمع» في الأصل يخلو من حكومة ومن سلطة مركزية والعلاقات تتخذ صيغة القرابة. بينما «المدينة» أو المجتمعات المدنية تتميّز، على العكس، بنظام من القواعد الصالحة لكلّ عضو من المجتمع.

ففي «مجتمع» يعيش غالبا في سياق من اختلال الأمن ومن العوز، يحظى الرجل القادر فيه على تنظيم الأمور وحلّ المشاكل بنظرة أو كلمة أو إشارة، وبعبارة أخرى، من خلال اظهار سلطته، بالنفوذ والشرف والتبرير لما يقوم به من أعمال. والإنسان المحترم أوالشريف والإنسان النبيل يشكلون جوهر المثل الأعلى الصقلي للوجود الإنساني. وذلك يعني، بتعبير واقعي، ان المجتمعات التي تهتمّ بمفهوم الشرف يتحكّم فيها سريان الإشاعة التي لها وظيفة هامّة جدا، والتي تنتشر لأن الخاصيات الأساسية للمجموعة تعتمد على الإهتمام الكبير بالشؤون العائلية الداخلية للآخرين. إنه سلوك تنازعي يمثّل خصائص واضحة للتنافس ويفضي إلى توليد مشاعر التعالي على الآخرين. والقيل والقال،

فعلا، يتضمن قدرا حقيقيا من التوجيه الإجتماعي في كلّ الأمور، خصوصا داخل المجتمعات الصغيرة.
وفكرة ان «الشرف مقدّس بالنسبة إلى الشخص» هي خاصيّة القسم الأكبر من المجتمع، وقد تولى اعلان الحقوق الأمريكي حفظها. وبما ان الشرف معرّض للتدنيس والشين فإن الطريقة الوحيدة للردّ على اعتداء كهذا هو الردّ بالمثل. وإذا قرّر المعتدى عليه ان لا يردّ فهو يجازف بأن يمكن اعتباره خسيسا. ان سرعة الردّ تتضمّن المساواة الإجتماعية، وبالتالي فإن الصورة التي يحملها الإنسان عن نفسه تتوافق غالبا مع صورته الإجتماعية.

2. الشرف والمافيا في صقليّة

المجموعة والقرابة والشرف

كان أغلب الناس حتى زمن قريب، في إيطاليا الجنوبية وصقليّة، يعيشون في قرى ذات كثافة سكانية ؛ وهذا يصدق أيضا على أغلبية السكان الذين كانوا يعيشون على الزراعة. كان للإقامة في بلدة، حتى ولو كانت صغيرة، قيمة ايجابية كبيرة، وعلى عكس ذلك العيش في الريف. كانت الحياة في المدينة مقرونة بالحضارة، على العموم، بينما كان الناس في الريف مقرونين بالتخلف في التفكير والسلوك. ونتيجة لذلك كانت الضيعات المنعزلة في الريف قليلة، وأغلبها يقع على السواحل الغربية لصقليّة وفي بوليا وعلى شريط الحدود مع إيطاليا الوسطى.

فالفلاح يتنقّل من قريته التي يمكن ان يتراوح عدد سكّانها من مئات قليلة إلى بضع عشرات من الآلاف، إلى حقول متباعدة، يزرعها بنفسه او يعرض عليه العمل فيها. والرحلة اليومية نحو الحقول يمكن ان تدوم

بضع ساعات. والقسم الأكبر من هذه المجموعات كانت في الأغلب منعزلة عن المدن الصغيرة المجاورة وكان لديها شعور انتماء محلّي قويّ، معروف أكثر بعبارة «*campanilismo*». هذا الشعور بالإنتماء كان يتركّز أساسا على رغبة الإنتقاص من المجموعات الأخرى أكثر من كونه تعبيرا عن الإفتخار بالقرية التي ينتمي اليها. وهذا بطبيعة الحال يخلق وضعا يكون فيه التعاون بين المجموعات نادرا شيئا ما. على مستوى المجموعات لا نلحظ ابدا أي نشاط مشترك، وإذا ما حدث ذلك فهو غالبا ما يقتصر على اقامة الإحتفالات الدينية، وخاصة احتفالات القديسين الأولياء، التي غالبا ما تتخذ شعارا لهويّة المجموعة.

إن النزاع المستمرّ بين مختلف المجموعات جعل اتباع خورنية ما يتزوجون أساسا فيما بينهم، حيث ان كلّ مجموعة تعتبر نفسها أحسن من المجموعات المجاورة. وعلى كلّ حال ففي داخل المجموعة العائلية نكتشف غلبة ايديولوجية تضامن قوي. ولعلّ هذا صار بارزا لأن ضعف التنظيمات الإجتماعية الشكلية ربما أوحى بشعور بالإنتماء لا يوجد في المؤسّسات الموجودة. وقد لاحظ رودولف بلّ (Rudolf Bell) انه «من الصعب القول بأن راشدا ما، له شخصية منفصلة عن العائلة، فهو لا يوجد كـ «ذات» بل كـ «والد»، حيث ان «الأطفال ينظر اليهم كأجزاء عضوية من العائلة وليس كأشخاص». فالأب الذي كان قوله قانونا، كان يحكم الأسرة التي كان على اعضائها التخلّي عن منافعهم الذاتية في سبيل المصلحة المشتركة للمجموعة.

إن روابط الدمّ كانت قوية لدرجة ان الأقارب المنتمين إلى مجموعات عائلية مختلفة كان عليهم الشعور، مثاليا، بنفس مشاعر الإتحاد والتضامن. فقد كانت القرابة أمتن علاقة يمكن ان توجد : فلئن كان أفراد العائلة غالبا ما يتخاصمون فيما بينهم فإنهم يتّحدون عند الحاجة ويدافع بعضهم عن بعض. وغالبا ما يقع ابقاء مفهوم «الأقارب» غامضا بعض الشيء، حتى يكون من الحصافة تقرير ما إذا كان شخص معيّن له تلك الصفة أم لا. فيمكن للمرء ان يلتمس تضامن الأقارب للحصول على المساعدة من قريب بعيد القرابة، وبالعكس يمكن لشخص ما ان يفضّل اعتبار قريب له بعيد القرابة، ليتجنّب واجب القرابة.

كلّ مجموعة عائلية كان لها درجة خاصّة من الشرف يقع عليها الإجماع. فإن بيتا ما، ينال الشرف من خلال تفاني أعضائه الرشداء في الإمتثال للواجبات العائلية المثالية. والتغييرات الهامّة في شرف عائلة ما تنعكس على شرف الأقرباء القرباء المنتمين إلى مجموعات عائلية أخرى. إذن، إذا حدث في بيت ما إخلال خطير بالشرف فإن الأقرباء يمارسون ضغطا على الأعضاء الرشداء في العائلة حتى يعملوا على استعادة الشرف. والصورة المألوفة لعمل شائن بالنسبة لعائلة ما هو الإتصال الجنسي غير الشرعي لرجل اجنبي بعنصر نسائي من البيت : فالإهانة في هذه الحال لا تلطّخ شرف العائلة فقط بل تلوّث دمها الى درجة أن شرفها ونقاءها لا تمكن استعادتهما إلاّ بواسطة الثأر. وإذا تعلّق الأمر بعلاقة

قبل الزواج بالبنت، فالبديل المقبول للردّ العنيف هو حلّ القضيّة بزواج الرجل بالبنت.

غالبا ما توصف العلاقات الإجتماعية الخارجية عن المجموعة العائلية كما لو انها تشكّل ما سمّاه جورج فوستر (George Foster) «بعقود ثنائية»، أي بعلاقة بين شخصين تقوم على تبادل المنافع المادية، والمساعدة البدنيّة وأشكال أخرى من الخدمات. وهذه العلاقات الإجتماعية قائمة على الثقة والإحترام تجاه الطرف الآخر. يمكن ان تربط مثل هذه «العقود» بين شخصين ينتميان إلى وضعيات اجتماعية مختلفة، يتولّى فيها احدهما دور السيد والآخر دور العميل. وعلى السيد ان يولي عميله منافع بفضل حظوته بين الطبقات الأكثر رقيّا في المجتمع، بينما على العميل ان يشيد بذكر سيّده وأن يزوّده بأخبار الأحداث المحليّة لتلك الفترة وأن يكون مستعداً لمساعدته في المسائل التي يعتبرها غير لائقة بمقامه. يمكن لعلاقات من هذا القبيل ان تتوطّد من خلال تشكيل علاقة ولاء طويلة الأمد.

كان الثأر والقصاص شرعتين تتعلّقان جوهريا بالشرف. فغالبا ما يكون الثأر مسبوقا بخصومة تافهة، ثمّ تتحوّل إلى سلسلة من الأعمال العدائية اكثر خطورة يوما بعد يوم – سرقات وتخريب للممتلكات واعتداءات جسدية – يصبح فيها السّبب الأوّلي للخصومة، شيئا فشيئا، أقلّ أهميّة. وعلى العكس من ذلك تزداد أهميّة الشرف وسمعة الرجال وعائلاتهم إلى ان تصبح موضوع الخلاف نفسه. والرجل يفقد شرفه إذا لم يكن في مستطاعه حماية

أملاكه ومصالح عائلته من الآخرين : فالإشتهار بالشجاعة وسرعة ردّ الفعل له قيمة استراتيجية هامّة. وعند بعض المجموعات، إذا ما احتدّ الخلاف فقد يؤدي ذلك إلى الثأر : في هذه الحالة، فإن أقصى درجات العدوان تتحقّق عندما تسعى إحدى العائلتين للثأر بالدم، وتقتل عضوا من العائلة المنافسة. والثأر يستنفر الأقارب المنتمين إلى مختلف المجموعات العائلية في عمل مشترك. وهي ممارسة قويّة الرسوخ، خاصة في صقليّة، حيث تتألّف مجموعات ضدّ مجموعات أخرى في عداوة تستمرّ فيها الإعتداءات والإغتيالات عشرات السنين كما هو الحال عند المافيا.

النظام الإجتماعي في إيطاليا الجنوبية

إن مملكة الصقليّتين، التي كانت تشمل تقريبا مناطق الجنوب الإيطالي الحالي، احتفظت بالخصائص الإقطاعية فترة أطول من مناطق أوروبا الغربية الأخرى. وقد ألغي الإقطاع في إيطاليا خلال حكم نابليون القصير الأمد بين 1806 و1815، في حين ان التغيير حدث في صقليّة سنة 1812، تحت ضغط بريطانيا العظمى التي كانت تحمي الجزيرة من الفرنسيين.
في عهد النظام الإقطاعي كانت أغلب الأراضي الصالحة للمرعى أو للزراعة ملكا لطبقة النبلاء والكنيسة أو تحت تصرّف البلديّة، على شكل ملكيّات شاسعة تدعى «فاودي» (*feudi*) أو «لاتيفوندي» (*latifondi*). وكان الفلاحون يعملون في هذه الأراضي التي هي على ملك

الهيئات المذكورة ويستفيدون من حقوق محدودة في استعمالها ويزرعون قطعات صغيرة متباعدة يحصلون عليها حكرة. وكان لهم الحقّ في رعي حيواناتهم الخاصّة في الأراضي البلديّة التي يجمعون منها إلى جانب ذلك الحطب والخرشف والعشب والثمار البريّة. كان الفلاحون الذين يقطنون الرّيف قلّة : فأغلبهم كانوا يعيشون في قرى أو في مدن صغيرة - تدعى قرى زراعية- غالبا ما ترفع إلى درجة بلديّات. ونسبة كبيرة من هذه البلديات كانت تابعة للقضاء الباروني، مع ان السكّان المحليّين كانت تمثّلهم شكليّا «الجامعة» أي المجلس المدني الإقطاعي. وكانت للإصلاح العقاري في بدايةالقرن التاسع عشر آثار بعيدة المدى : فقسم من الأملاك الإقطاعية أحيلت ملكا خاصا للبارونات وكبار الملاّك، بينما أسند قسم آخر للبلديات باعتباره أرضا عمومية وذلك لتخصيصها للفلاحين الذين لا أرض لهم. وقد وقع انتزاع أراضي الكنيسة ووضعها في المزاد العلني. ونتج عن ذلك أن العائلات النبيلة التي افتقرت وأرهقتها الديون أمكن لها بيع أراضيها الخاصّة، محوّلة بهذه الطريقة الأملاك إلى رأس مال. وفي نفس الوقت أتيحت الفرصة لمن هم أكثر غنى لتوسيع أملاكهم العقارية الخاصّة. إذن نتج عن الغاء الإقطاع زيادة كميّة الأراضي التي يملكها النبلاء بعنوان الملكية الخاصّة. والبرجوازية الريفيّة أيضا ابتاعت مناطق شاسعة من الأراضي الإقطاعية التي كانت تابعة لطبقة النبلاء المفتقرة أو للكنيسة. إن أصول هذه الطبقة الإجتماعية متنوّعة : بعض البرجوازيين كانوا في الأصل مديري أملاك السادة

الإقطاعيين ؛ وكان آخرون يقرضون المال أو كانوا محامين، أو موظفين عموميين أو تجارا حاذقين ؛ وآخرون أيضا ظهروا كمربّين للحيوانات أو مزارعين أكفاء أو أصحاب مشاريع. وجميعهم على كل حال كانوا يعتبرون الأرض توظيفا مأمونا وحريّا، زيادة على ذلك، بأن يوليهم بعض الوجاهة.

وقد صارت الأراضي البلدية محلّ نزاع طويل وشديد بين البلديات والفلاحين والبارونات والبرجوازية : وكانت الغلبة في أكثرالحالات من نصيب أعضاء هذه الطبقة الأخيرة الذين تحصّلوا على ملكيّتها. فنتائج الإصلاح العقاري إذن كانت بالأساس أنّ الفلاحين الفقراء ظلوا في الواقع محرومين من الأراضي وأنّ عديد العائلات النبيلة استمرّت في حيازة أملاك شاسعة. أمّا التغيير الحقيقي فقد حدّده ظهور البرجوازية التي انتقلت إلى أياديها ملكيات فسيحة الأرجاء. هذه الطبقة الجديدة الصاعدة سعت بمثابرة ونجاح في توسيع أملاكها الخاصّة، مساهمة في نفس الوقت، في تحسين نوعية الفلاحة.

إن الملكية الزراعية الكبيرة (*latifondismo*) كان لها أثر حاسم على سكّان المناطق المذكورة، لأن الإقتصاد كان لحدّ كبير يعتمد بقوّة على المنتوجات الفلاحية وعلى النشاط الرعوي الواسع. ووجود مناطق شاسعة غير مأهولة كان يجعل الرحلة عبر الأرياف غير مأمونة. وعدم وجود شبكات ملائمة من الطرقات كان يجعل الأمور أسوء بكثير. عدى ذلك فإن ظروف الترحّل التي يحياها الرعاة، وهشاشة العلاقة بين الناس والأرض، التي حتّمها عدم استقرار الشغل، والإقصاء الضمني للمرأة من العمل

الفلاحي، وتغيّب كبار ملاّك الأراضي، ساهمت في تقوية دور «الأكارين» (*gabellotti*). وكان الأكّارون من كبار المؤجرين الذين كانت طبقة النبلاء ملاّك الأرض تنتدبهم من بين قلّة من الفلاحين المالكين لبعض الأرض وبعض الماشية، ومن بين أولئك الذين كانوا يساعدون الملاّك المتغيّبين على حفظ النظام وعلى مراقبة أملاكهم. وكان الأكّارون يفعلون كل ما في وسعهم لتحسين وضعهم الخاصّ وكانوا يتحكّمون في قسم كبير من الحياة الإجتماعية للمجموعة الفلاحية المتواجدة بالقرية الزراعية. وكان الأكّارون يتصرّفون أيضا في المآكر وفي الضيعات الفلاحية ويتحصّلون على ضيعات أخرى جديدة غالبا ما تتجاوز حدودها إلى حدود الفضاء الفلاحي العمومي وذلك على حساب السّكان الفلاّحين في المنطقة المعنية، والذين كانت لهم حقوق قديمة في استعمال تلك الأراضي. وخلال القرن التاسع عشر اعتمد نفوذهم أكثرما اعتمد على الكفالة وبالتالي خضع الفلاّحون أكثر فأكثر للأكّارين للحصول عل الأرض.

وقد ساهم توحيد إيطاليا بصفة غير مباشرة في تعزيز الطبقة الجديدة الصاعدة. فقد صادرت الدولة الجديدة وباعت قدرا كبيرا من الأراضي البلديّة ومن الأملاك التي كانت تابعة لمختلف أنظمة الرهبان وللهيئات الكنسيّة. ولئن كان من المفروض أن يوزّع القسم الأكبر من هذه الأراضي على الفلاّحين إلاّ أنه وقع على العكس بين أيدي ملاّك الأرض السابقين. وهؤلاء كانوا يؤجرون أملاكهم للأكّارين وينتقلون الى مكان آخر؛ وكان الأكّارون يؤجّرون بدورهم الأرض بمقتضى عقود تدوم سنة

أو سنتين، حسب قاعدة المقاسمة، حيث تقسم المنتوجات والمنافع بين المزارع والمالك. فالأرض القابلة للزراعة كانت إذن تسلّم للفلاّحين في شكل قطعات صغيرة بمقتضى عقود إيجار أو مقاسمة. وربّما أحدث هذا تحسّنا في النموّ الزراعي إلاّ أن أوضاع غالبية الفلاّحين لم تتحسّن بالمرّة. بل بالعكس ترتّب وضع وجد فيه الفلاحون أنفسهم في كثير من الأحيان مثقلين بالديون إزاء ملاّك الأراضي.

وقد زاد النموّ السكّاني السريع الذي تلا الوحدة الإيطالية في التنافس بين الفلاحين حول الأرض الموجودة، ممّا حمل على زراعة تربة فقيرة كان ربّما من الأنسب أن تخصّص للمرعى. كما بقيت ظروف حياة الفلاحين في غاية التعاسة : فالزيادة المستمرّة في عدد الفلاحين المحرومين من الأرض والنموّ السكّاني لإيطاليا بعد الوحدة، أولت الأكّارين نفوذا تعاقديا كبيرا سمح لهم بفرض شروط العمل. ثم إنّ تفشّي استغلال المزارعين المعوزين والإزدراء والإهمال من قبل مالكي الأراضي والنفوذ الإجتماعي المرتبط بالملكية مع تبجيل طريقة الحياة الطفيلية قد ساهمت في الإنحطاط الشامل، الإجتماعي والإقتصادي للفلاّحين الصقليّين. وباختصار فإن المزارع الصقلّي تحرّر من القيود الإقطاعية ليجد نفسه سجين شكل جديد من التبعيّة السياسيّة والإقتصادية.

إن الشرف في الثقافة التقليدية للمافيا الصقلية معرّض للخطر كلّما وقع الدّوس، عمدا، على حقوق الملكية. وهذا ما يمكن أن يحدث عندما تغتصب امرأة. ولكن المسألة تدور في الغالب حول انتهاكات ذات طبيعة اقتصادية لها تبعات سياسية، كما يحدث مثلا في حالة سرقة الماشية أو الحصاد، أو عندما يقع إتلاف جزء من المحصول، أو عندما تساق الأبقار والنعاج والمعيز عبر حقول ومراعي شخص آخر، أو عندما يقع قطع كروم أو أشجار مثمرة. في جميع هذه الحالات يقع التشكيك في شرف المالك أو الحارس. ويضيف «بيتر» و«جين شنيدر» (Peter, Jane Schneider)، أيضا أنّ الشرف يمكن أن يمثّل بالنسبة إلى الصقلّي الفقير نوعا من التعويض لحالة التبعيّة الإقتصادية التي يعيشها والتي تمثّل غاية المهانة. وعلى عكس ذلك فإن ثروة طائلة موضوعة بين «أيد فقيرة» قد تؤدي إلى تقدير اجتماعي سلبي لمن يملكها.

كانت المافيا، أساسا، تقصد باستعمال العنف إضعاف سلطة الدولة. فقد كان أعضاء المافيا رجال أعمال ريفيين وفلاّحين برزوا داخل المجتمع الصقلّي خلال القرن التاسع عشر. وكانوا يتنافسون فيما بينهم على التحكّم في الثروة وفي الموارد النادرة والثمينة. وكانوا قد اكتسبوا نفوذا استراتيجيا بين كبار الملاّك من خلال الوساطة التي يقومون بها بين المدينة وداخل الأراضي الصقلية الغربية، وبين الشرائح الإجتماعية الضحويّة

والقوى السياسية الأكثر مركزيّة وبين ملاّك الأراضي المتغيّبين وعملائهم.

والملكيّات المؤجرة للأكّارين كان يكلّف بها مراقبون يعرفون بـ «النظّار». وكان النظّار بالإتفاق مع الأكّارين يحدّدون أنواع الزراعة ويعتنون مباشرة وبصفة مستمرّة بإدراة الملكيّة. فالناظر، إذن، هو بالأساس رجل الثقة. وليس للنظار في العادة كفاءة واضحة في الأعمال الزراعية فكانوا ينتدبون رجالا أقوياء هم «النواطير» (*campieri*)، كانت مهنتهم فرض الإحترام، والتأكّد من أنّ المزارعين يساهمون في الإزدهار الشامل للمؤسّسة كلّها. كان النواطير يشكّلون نوعا من الشرطة الخصوصية مهمّتها التأكّد من أنّ إرادة الأكّارين والنظّار قد وقع احترامها.

كان الناطور هو حارس الملكية : فهو الذي يفرض الضرائب وهو الذي يجبيها، ويحتفظ لنفسه بنصفها ويعطي النصف الآخر لـ «زعيم المافيا» الذي يقود «عائلة المافيا» (*cosca*) في تلك المنطقة. وفي الحقيقة فإنّ النواطير لم يكونوا فقط يبتزّون الضرائب من المقاسمين بل كان في قدرتهم فرض أنفسهم على الناظر ذاته. وبفرض احترامهم على الآخرين غالبا ما كان النواطير يفلحون أيضا في إبعاد لصوص الماشية وصغار الناهبين عن مناطقهم وبالتالي فغالبا ما كان حضورهم يتكلّف ثمنا باهضا بالنسبة إلى المتصرّف أو المالك. وقد ازداد اعتماد ملاّك الأراضي الصقليين على النواطير بمشاركة المافيا في وقت مثّل فيه المزارعون تهديدا

متصاعدا للمصالح العقارية المكتسبة. فقد كان رجال المافيا دون رحمة عند تحصيل الضرائب والإستخلاصات. في بعض الأحيان كانوا يقبلون شكوى الفلاح الفقير، فيسمحون بتخفيضات خفيفة في الضريبة خصوصا في حالة محصول سيّىء. وعندما يجمعون نقود الإبتزازات فإنهم غالبا ما يعلنون أنهم يجمعونها لفائدة «الأصدقاء» و«صغار» أعضاء العائلة المافية».

كانت المافيا، من وجهة نظر الدولة الإيطالية الفتيّة، شكلا من أشكال العنف اللاّشرعي : فقد كان أعضاء المافيا يقدّمون نوعا من الحماية يختلف تماما عن الحماية التي توفّرها الدولة. ومع ذلك فإن السّلط الرسميّة كانت على درجة كبيرة من الضعف بحيث قبلت عمليّا سلطة المافيا. وهذا راجع بالأساس إلى كون استعمال العنف والترهيب جزءا من ثقافة صقليّة نفسها بعد الوحدة. ومن كان بمقدوره أن يفرض نفسه عن طريق العنف الجسدي فهو يجلب الإحترام لنفسه ويعتبر قائدا. وبالتالي فقد كان يشار إلى «رجال المافيا» على أنهم «رجال محترمون» (رجال شرف).

كان السّادة في مستهلّ القرن التاسع عشر يستعملون أعضاء المافيا كوسطاء ليوازنوا الأثر الحاسم للدولة ولسياساتها ولمطالب الفلاحين المتزايدة. ويؤكد أنطون بلو (Anton Blok) أنهم كانوا يوجّهون التمرّدات المكشوفة ويساندون الإنتفاضات بطرق مختلفة : بالقوة وبالتحكّم في الفلاحين المستعصين وبتحويل قطّاع الطرق والخارجين على القانون إلى حلفاء. وبهذه الطريقة دعّم أعضاء المافيا العلاقة بين الحامي والعميل الكائنة

بين السّادة وفلاحيّ القرى الزراعية، الذين كانوا محتاجين لكبار ملاّك الأراضي للدخول إلى القطعات الصغيرة، أو يعملون في الحوزات الكبيرة كمقاسمين أو كعمّال يوميّين أو رعاة أو حارثين وما شابه ذلك. وفي نفس الوقت كانوا يخلقون روابط جديدة من العمالة حواليهم، موفّرين للناس حماية ومراكز مستقلّة داخل البنية الزراعية، بواسطة التهديدات والضغوطات المسلّطة على الآخرين. وغالبا ما كانوا هم الذين يثيرون الإضطرابات التي يدعون لفضّها لقاء النقود أو لفائدتهم الخاصّة أو لفائدة أصدقائهم. فقد كانوا يسعون إلى تكوين شهرة لأنفسهم تقوم على إثبات الذات بالعنف بطريقة تسمح لهم بالتحكّم في الموارد المؤجرة من قبل مالكين آخرين أو أسياد - عادة ما يكونون أكبر- أو لتوسيع دائرة نفوذهم المحلّي. وفي حالات اختلال الأمن والتعسّف السياسي والإقتصادي فإن رجلا قادرا على تنظيم الأمور وحلّ المشاكل بنظرة أو كلمة أو إشارة (بعبارة أخرى، من خلال إظهار السلطة) يتحصّل على نفوذ وشرف وتبرير لأفعاله الخاصّة. وباختصار فإن المفهوم الصقلّي للشرف مرتبط بمفاهيم الرجولة والقوّة البدنيّة. فـ «الرجل المحترم» أو «رجل الشرف» (وهي الألفاظ المستعملة عندما يأتي ذكر عضو في المافيا) والنبيل غير المضطرّ للعمل البدني لاكتساب الرزق كانت تشكّل جوهر المثل الأعلى الصقلّي للوجود الإنساني. وهذا ما حمل أنطون بلوك على تأكيد أنّ أعضاء المافيا كانوا يعتبرون «رجال شرف» لأنهم رجال «قادرون على العناية بشؤونهم الخاصّة» و«جلب الإحترام».

3. الشرف والقيم الإجتماعية في الأندلس

الخلفية الإجتماعية-الثقافية

إن الأندلس، مثلها مثل صقليّة، منطقة متكوّنة من قرى زراعية وملكيات كبيرة. والقسم الأكبر من الناس الذين يعيشون في القرى الزراعية مرتبطون بالأرض ولكنّهم يحتقرون الريف، الذي يمثّل حسب هانك دريسّن (Henk Driessen) «فضاء العمل فيه شاقّ وقذر ومرهق».
فأيّ شيء له قيمة مثل امتلاك الأرض والرفاهية والإزدواجية والتربية والنظافة والإستقلال الذاتي فأصلها في المدينة. والتناقضات بين المدينة والريف وبين الطبقة المثقّفة والطبقة الشغيلة وبين عالم الذكور وعالم الإناث هي أهمّ تقسيمات المجتمع المحلّي.
إن المجتمع الأندلسي مجتمع يسيطر عليه الذكور سيطرة شديدة، وقد كانت فيه العلاقات بين الجنسين مبهمة وغالبا متعارضة. فالذكر المثالي قاس وقويّ وجازم ومستقلّ، اضافة إلى كونه رئيس البيت دون منازع. فهو يقوم بعائلته ويحمي شرفها ونادرا ما يبقى في البيت.

والمرأة من ناحيتها يجب أن تكون فاضلة وكفأة ومطيعة ويجب أن تكرّس حياتها لزوجها ولأولادها. فهي التي تصون حرمة العائلة، ويبدو ذلك في تقاسم الواجبات بين الجنسين. والرجال بصرف النظر عن طبقاتهم وأشغالهم يعتبرون أن نساءهم لا يجب أن يعملن خارج البيت لكسب العيش. وبالمثل فإنّ المجال العمومي يكوّن دنيا الرجّال، بينما تنتمي النساء إلى المجال الخصوصي. ولهذا السبب فالعائلة وما يستتبعها مرتبطة بكلّ مظاهر الحياة الإجتماعية.

تتكوّن العائلة عندما يغادر رجل وامرأة العائلة التي نشآ فيها، لتأسيس عائلة جديدة. والعائلة الموسّعة نادرة وتعتبر شذوذا غير جدير بالإحترام. وليس هناك نظام محدّد لمهر الزواج : فالمبادلات الوحيدة التي يستتبعها الزواج هي مصاريف الحفلة وقدر من النقود يسلّمه الزوج للزوجة قبل بضعة أسابيع من العرس لتجهيز البيت الجديد. والملك الموروث لهذا الطرف أو ذاك، يبقى ملكيّة له أو لها حتى لو دخل ضمن الأملاك الزوجية المشتركة، وذلك ما بقي كلاهما على قيد الحياة. فالتعادل الجوهري للطرفين في الزواج يعكس تعادل الجنسين في الإرث. ومع ذلك فإن الصيغة القانونية المستقلّة التي يخلقها هذا القران تسند الإشراف المالي للزوج. ولئن كان الزوج متوقّفا على إمضاء زوجته في ما يتعلّق بأملاكها فهو الذي يشرف على ثروة العائلة كلّها. وتستعيد المرأة شخصيتها القانونية كاملة عندما تصبح أرملة. ويعترف أيضا للمرأة بمنزلة زوجها الإجتماعية ولكنها لا تفقد المنزلة المكتسبة عند النشأة. وهي

تحتفظ، من وجهة النظر القانونية، بلقب عائلتها مع إضافته إلى لقب زوجها، وتنقله إلى أبنائها ليكوّن لقبا ثانيا. وبإمكان المرأة الرفيعة النسب أن تورث أبناءها منزلة أبيها الإجتماعية (باعتبار ذريّة النسل الذكري).

والعائلة هي بالأساس وحدة اقتصادية مستقلّة. في حالة عائلة من العمّال اليوميين، فإنّ كلّ عضو يضع مكاسبه الخاصّة تحت تصرّف العائلة، ولكن فقط عند إنفاق الإيرادات العائلية يعتبر البيت وحدة مفردة. وخلافا للوضعية القانونية ففي الوضعية العمليّة تكون ماليّة الأسرة في تصرّف الزوجة، بما أنها هي التي تهتمّ بتموين البيت. ومن المتوقّع أن الزوج يسلّم اليها كامل مرتّبه. والخلاصة أنّه على الزوج التصرّف في أملاك الزوجة، بينما يعهد للزوجة بالمسؤولية الجديدة أي تسيير البيت وتربية الأبناء : فهي إذن نقطة المركز في المجموعة العائلية. ومع أن الملكيّة تحظى بأهميّة كبيرة فإنّ الأندلسيين عاطفيون جدا عند اختيار العروس، والزواج المرتّب من طرف الأبوين، لمصالح متصلة بالملكية، نادر وغير مقبول.

إلاّ أن هذه الطريقة في النظر إلى الأمور شديدة الإرتكاز على الحاجيات الإقتصادية لكلّ طبقة اجتماعية بمفردها، ممّا يتناقض مع الصورة الرسمية. وفعلا فإن الرجال في الطبقات الوسطى والعليا يمارسون دورا ايجابيا سواء في المجال العمومي أو الخاصّ : فهم لا يوفّرون دخل العائلة فحسب، بل يشرفون على ميزانيتها، ويتخذون القرارات الإقتصادية ويشاركون أيضا في تربية

الأبناء. وفي نفس الوقت فقد ازداد عدد نساء الطبقة الوسطى اللاتي يمارسن شغلا محترما كمستخدمات، واللاتي ينضممن إلى أزواجهن في النشاطات الخارجية والإحتفالات ونهايات الأسبوع.

عند العمّال اليدويين الزراعيين يكتسي عمل النساء أهميّة قصوى لتوفير الغذاء للمجموعة العائلية. وتهتمّ النساء بصفة عامّة بجمع الزيتون والعنب والقطن، زيادة على الزراعات الصيفية. والرأي السائد أنّه من الأفضل في أوقات البطالة أن يكون العمل للرجل. إلاّ أنه في الواقع يقع تشغيل النساء لأنهن يتقاضين أجرة أبخس وهنّ أيسر في التعامل من الرجال. ونساء الطبقة العاملة أيضا يشتغلن في قطاع الخدمات المنزلية وصناعة النسيج والصناعات الغذائية.
وبالتالي فمن العادي جدا أن نعثر على نساء لهنّ عمل موسميّ أو قارّ ولهنّ أقارب مباشرون ذكور – زوج أو أب أو أخ أو ابن – عاطلون. والمرأة، عند الطبقة العاملة، هي التي تهتمّ في العادة بماليّة الأسرة وبالحياة الإجتماعية للأبناء. والرباط الأقوى هو الذي يربط بين الأم والبنت اللتين تحافظان على صلة قويّة بينهما وتفضيان لبعضهما بأكثر الأسرار حميميّة. وسيطرة الرباط بين الأم والبنت حملت إلى توجّه قويّ نحو السكّن في منزل الزوجة (حيث ينتقل الزوج الى العيش بين مجموعة زوجته). وقد ساهمت عرضيّة مشاركة العامل اليومي في ميزانية العائلة والإستقالة الماديّة للذكر في تضخيم هيمنة دور المرأة في البيت. والتوتّر الناتج عن

التناقض بين الإيديولوجية والواقع يقوم بدور هامّ في صياغة الشرف الذكوري.

السمعة والشرف والعفّة

إن اختلاف القيم بين شعوب البحر المتوسّط وشعوب أوروبا الشمالية يقوم على تنوّع مفاهيم الشرف. في الشمال يؤمن البروتستانت بتساوي تقاسم النساء حسب المثل الأعلى المسيحي القائم على الزوجة الواحدة. وهذا صحيح أيضا بالنسبة إلى الكاثوليكيين. ولكن في البلدان الكاثوليكية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط لم يخل هذا المثل الأعلى من معارضات على المستوى الدنيوي. فالشرف في هذه البلدان متعلّق بالتفوّق الشخصيّ للرجال، وبامتلاك النساء جسديا، وذلك يخالف المثل الأعلى المسيحي. وباختصار فإنّ رجال البحر المتوسّط الكاثوليكي يميلون إلى التنافس فيما بينهم بهدف الفوز برضاء النساء. جوهريّا، يمكن العثور على واحد من أهمّ الأسباب لهذا الوضع في الإعتقاد بأن التقسيم الإجتماعي للعمل بين الجنسين «طبيعيّ»، لارتباطه بمفاهيم أساسية لا مجال للجدال فيها لطبيعة الذكورة والأنوثة. هذا الإتجاه الفكري ممثّل أحسن تمثيل في السلوك العام تجاه العائلة، التي هي أصغر وحدة اجتماعية يتواجد فيها أعضاء من كلا الجنسين، وحيث تكون العلاقات بين الذكر والأنثى أشدّ تباينا. إنّه لفي بنية الأسرة تكون الصفات الخلقية للفيزيولوجيا الذكرية والأنثوية متكاملة. وبالتالي فإن الرجال

مسؤولون عن شرف نسائهم، نظرا لكونه مرتبطا بالطهارة الجنسية. وشرف الرجال، بالمقابل، يستمدّ بدرجة كبيرة من الطريقة التي يضطلعون بها بمسؤولياتهم. إنّ الإهتمام بطهارة النساء الجنسية وبحمايتها مرتبط بالإعتقاد بأن انتقال الصفات الخلقية يمرّ عبر الوراثة الجسدية. إنّ تفريط المرأة في عفّتها يعرّض للخطر شرف الأسرة الذي ذخره الأجداد، في حين أن تفريط الرجل يحطّم شرف عائلات أخرى. ويعتبر الرجال أنفسهم مسؤولين عن سلوك نسائهم لأن فيه يكمن جوهر شرفهم الخلقي، الذي هو بدوره جوهر الشرف، لأنه مرتبط بما هو مقدّس، وليس كذلك الشرف السياسي ولا الإجتماعي.

والشرف يمكن أن يورث كما يمكن أن يكتسب. يورث لكلتا السلالتين وتكون له أهميّة قصوى في قرار الزواج الذي يمكن، في هذه الحالة، أن ينظر اليه لا باعتباره تبادلا للنساء ولكن باعتباره دمجا لشرف نواتين عائليّتين يترتّب عنه مقام شرف الأحفاد. ويعتبر من الهامّ أن يكون طرفا الزواج متساويين في الشرف، وإلاّ فإن الطرف الأرفع قد يرى أنه مارس اختيارا سيندم عليه.

وقد لاحظ جوليان بيت ريفرز (Julian Pitt-Rivers) عند دراسته لقرية صغيرة أندلسية في «سيّرا دي قادس» (Sierra de Cadiz)، أنّ مقام الشرف لأعضاء المجموعة هو مسألة حياة يوميّة تنفع في دعم أو توهين سمعة شخص ما. فالسّمعة ليس لها فقط علاقة باعتزاز الشخص بل إنّها تساهم في تفخيم صورته في مجتمع حيث الذكر الحسن هو أفضل الخيرات.

من الثابت أن المجتمع الأندلسي يولي أهميّة كبيرة للمجاملة : وفعلا فإنه إذا ما تخاصم شخصان إلى درجة لا يعود في استطاعتهما معها التجامل فإنه يتجنّب أحدهما لقاء الآخر. ومع ذلك فإنه توجد طبقة من الأشخاص «قليلي الحياء»، «عديمي الحشمة» (*los sin vergüenza*) غالبا ما تنتفي المجاملة معهم. هؤلاء الأشخاص لهم سمعة شائنة لأنهم عادة ما تكون سيرتهم معيبة، مثل الإختلاس والتسوّل ومروادة النساء. والأشخاص الذين يكون هكذا الرأي فيهم، عادة ما يلحقون بفئة معيبة أخرى في الأندلس هي فئة الغجر، الذين يعتبرون بالطبيعة، لا كرامة لهم. ومع ذلك فالغجر أوفر حظّا من الأشخاص «العديمي الحياء» لأنهم يثيرون الخوف : وفعلا فالإعتقاد السائد هو أنهم قادرون على توجيه طاقتهم السحرية ضدّ الأندلسيّن الشرفاء. وغالبا ما يتوجّهون إلى الأشخاص «العديمي الحياء» بكنيتهم دون ذكر اسم التعميد، ويعاملونهم بازدراء وذلك للمبالغة في إظهار حقارتهم. هذه القيم الثقافية تشير، في ما مضى، إلى وجود علاقة متينة بين مفاهيم الشرف والعفّة، وبالخصوص كيف أنه عندما يفقد الشرف لا تمكن استعادته. وباختصار فإن السمعة تكتسب من خلال التأثير الشديد الذي يمارسه الرأي العامّ. ففي مثل هذه الظروف تصبح السّمعة مرادفة للشرف. والخشية من التعرّض للتعليقات والإنتقادات تدفع أعضاء المجموعة إلى كبح انفعالاتهم.

إن السلوك الذي يوطّد الذكر الحسن يتوقّف على الوضع الإجتماعي للشخص المعنيّ. وبالتالي فإن «الرجولة»،

التي هي الأخرى ترجمة «حرفيّة لعبارة *hombria*» أي الإهتمام بالسّمعة)، بقدر ما هي تعبير ناشىء عن تأكيدات متعلّقة بـ «الصّيت» بقدر ما هي اهتمام بما «يقوله الناس» (*quediran*) أي الإغتياب الإنتقادي. أمّا عفّة المرأة الجنسية فيعبّر عنها بكلمة «*honra*» أو «*vergüenza*» (حياء، احتشام). وكما هو من خصائص المجتمعات الأخرى فإن شرف الرجل يقتضي سيرة مختلفة عن سيرة المرأة. فالمرأة، في الواقع، يلحقها العار إذا فقدت طهارتها الجنسية، بينما لا يؤثّر ذلك على شرف الرجل. والرجل، مع ذلك، مجبر على حماية شرفه الخاص وشرف عائلته، بينما على المرأة الحفاظ على طهارتها بالذات. فهناك إذن أنواع من السلوك تعتبر مشرّفة لكلا الجنسين، ولكن هناك أيضا مجالات للسلوك تعتبر فضيلة مقتصرة على واحد من الجنسين. إلاّ أن مفاهيم الشرف والحياء لا تتوافق دائما. وفعلا، فبينما يعتبر الحياء، والإحمرار خجلا، والإنطواء، صفات تناسب النساء الشريفات، فإنه ينتظر من الرجال الشرفاء أن يكونوا مستعدين لإهانة الرجال الآخرين إذا ما وقع استفزازهم. بطبيعة الحال هذا السلوك يصبح شائنا إذا ما صدر عن غير الجنس المناسب. وبالتالي إذا بدا الرجل خجولا أو احمرّ من الحياء أصبح محلّ سخرية، في حين أن المرأة إذا ما صدر منها عنف بدني تحاول به أن تقوم بدور ذكوري، أو قامت بانتهاك جنسي، وذلك أخطر، فإنها تفقد كرامتها. ولئن لم يكن الشرف و الحياء متكافئين إذن، فهما مرتبطان حصريا بجنس أو الآخر، ومتعارضان. فالفرد الذي يملك «حياء» (*vergüenza*)

حسّاس تجاه سمعته الذاتية ولا يعرّض نفسه لخطر الإهانة. وباختصار فإن الشخص «عديم الحياء» هو كذلك فقط في الحالة التي يكون فيها مضطرا للإعتراف بأنه لم يردّ على الإهانة. وبالتالي فالعار مفروض من الخارج. وكما يؤكّد بيتّ ريفرز فكما أن الشرف هو إذن في نفس الوقت شرف مشعور به وشرف معلن وشرف مدفوع الثمن، فإن ما يسمّى بـ «*vergüenza*» هو عار مفروض ومتقبّل وفي الأخير مشعور به». والثقافة الأندلسية توازن بين تحفّظ المرأة وهو يساوي الأساس الطبيعي للعفّة الجنسية، وبين الرجولة وهي تساوي الأساس الطبيعي للسلطة ولحماية الشرف العائلي.

وتقاسم الواجبات هذا في مختلف مظاهر الشرف يقابل تقاسم الأدوار في النواة العائلية. فشرف الرجل يتوقّف على العفّة الجنسية لأمّه وزوجته وبناته وأخواته، لا على عفّته هو. إذن فالقولة الشعبية التي يوردها بيت ريفرز «المرأة الشريفة : ساق مكسورة في بيت مغلق» (*la mujer honrada : la pierna quebrada y en casa*) تبيّن الصعوبة التي تعترض الشرف الذكوري في هذا المعنى. وهو يركّز على الإعتقاد الشائع بأن المرأة الشريفة التي تربّت على الشعور الصحيح بالعفّة، تبذل ما في وسعها لتجنّب الإتصالات البشرية التي يمكن أن تعرّضها للعار. وفي نفس الوقت فهي لا يمكن أن تفلح في ذلك إلاّ بدعم من السلطة الذكريّة. ومن خلال الجنس بالذات تكتسب النساء نفوذا على الرجال، والظنّ أن لدى المرأة طموحا، بالطبيعة، لنيل الحرّية ولقلب النظام الطبيعي محاولة السيطرة على الرجل. فالمرأة الفتيّة

البكر ليست مستقلّة اجتماعيا وذلك لأن شرفها ما يزال يشمل أسرتها ومشاريعها للزواج. وكأرملة، فحسب، تكتسب المرأة استقلالا حقيقيا، وتمثّل نفسها وأبناءها القاصرين في المسائل القانونية والمعاملات. ومع أن شرفها ينتقل إلى الأبناء فهي ليست خاضعة لسلطتهم.

تبرّر هذه الظروف العادة السائدة في أغلب أقسام المجتمعات التقليدية في أوروبا الجنوبية، التي ترى أنّ الزوج المخدوع في شرفه هو الأحرى بالإستهزاء من الزاني. فالزوج المخدوع هو «*cabron*» (حرفيّا تيس كبير). تلطّخت رجولته بما أنه خان القيم العائلية إذ ألحق العار بكلّ أعضاء الفئة الإجتماعية المتشاركة في شرفه. فالتبعة تقع عليه هو لا على الزاني، لأن هذا الأخير تصرّف بما تمليه عليه طبيعته الذكورية. لأجل ذلك فإن رجولة الزوج يجب ان تمارس خصوصا في حماية شرف الزوجة الذي يتعلّق به شرف الزوج نفسه. باختصار إذن فالخيانة الزوجية (التقرين) تمثّل حالة من نزع الحرمة أكثر من كونها عقابا.

إن ما يظهر جليّا، بعد ذلك، من خلال مؤسّسة الـ «*vito*» (التي يشار إليها أيضا بعبارة «*cencerrada*» أو «*charivari*») أن الهدف منها هو الإستهزاء بشخص ما وإلحاق العار به. ويؤكّد «بتّ ريفرز» أن الـ «*vitos*» كانت تستخدم في الماضي للتشهير بفضيحة حيّة، ومنعها بهذه الطريقة». وكان الـ «فيتو» ينفّذ تقليديا عندما تتزوج الأرملة مرّة أخرى ؛ وبما أنه صار محجّرا قانونيا فقد تضاءل استعماله في السنوات الأخيرة، وخاصّة في المدن الصغيرة التي توجد بها ثكنات الحرس المدني.

ويوجد على كلّ حال عدد من النساء الأبكار والأمهات المهجورات اللاّتي يواصلن العيش وسط العائلة التي نشأن فيها، حيث يقع التسليم بمصيبتهنّ، حتى ولو كنّ لا يعاملن كفاسقات، ويشبه وضعهنّ وضع الأرملة الشابّة. واحتمالات تزوّجهنّ مرّة أخرى قليلة، لأن الرجل الذي يريد أن يتّخذ فتاة من هذا النوع زوجة، يلحقه العار، نظرا لكون الشرف يتطلب الزواج بعذراء. باختصار، فإن قانون الشرف هذا، القائم على حرمة الأشخاص أكثر من استيحائه من القيم الأخلاقية أو القانونية، كان يتعارض مع قوانين الكنيسة وقوانين الدولة سواء بسواء.

في الواقع كل قطاعات المجتمع يمكن أن يلحقها العار، ويمكن أن يوجّه الـ «فيتو» ضدّ أي عضو من المجتمع. هناك مع ذلك صنفان من الأشخاص لا يخضعان تماما لـ «فيتو» وهما «الفسّاق» و«السّادة» (*senoritos*) أي ذكور المجتمع الحضري الراقي. فالفسّاق يفلتون من الـ «فيتو» لأنه ليس لهم شرف يحافظون عليه، بينما ينجو منه السّادة لأنهم أرقى من مجموعة الرعاع ولا يؤاخذون على أفعالهم بنفس الطريقة المطبّقة على الرعاع. يعترف لهم بأنهم مختلفون ولو أنّ سلوكهم غير أخلاقي قد يُذكر أحيانا في الحفلات الشعبية. وتختلف التبعات المترتّبة عن العار الذي يلحق الذكر إن تعلّق الأمر بمواطن عاديّ أو بأحد السّادة. فرجل المجتمع الراقي يمكن أن يحتفظ بنواتين عائليّتين وأن يوزّع بينهما وقته وموارده. وذلك غير ممكن بالنسبة إلى المواطن العادي لأنه لا وقت له ولا موارد. فإذا ما قرّر

مواطن عاديّ أن يتّخذ عشيقة فإن عمله يستتبع الرفض من طرف عائلته. فبينما ينتهك المواطن العادي الزاني حرمة عائلته بالعلاقة خارج الزواج، فإن السيّد يظهر بها تفوّق رجولته. فطبيعي بالنسبة إلى رجل من عائلة ميسورة أن يحتفظ بنواة عائليّة ثانية ؛ ومع ذلك فلا بدّ من التسليم بأن الزوجة تتأثّر لهذا الأمر كثيرا.

الشرف العائلي

إنّ ربط شرف الذكّر بالعائلة وبالسجايا الضروريّة لحمايته، أكثر من ربطه بأخلاقيات السلوك الجنسي - دينيّة كانت أم غير دينية - لا يعني أنّ هذه الأخيرة ليس لها تأثير على الرجل الأندلسي. غير أنه من الغريب أنّ الطبقات الإجتماعية السفلى (في معظمها مناوئة للكنيسة وبالأحرى قليلة التديّن) تميل إلى إيلاء هذا المنحى من الأخلاق المسيحيّة أهميّة أكبر ممّا توليه له الفئات الوسطى والعليا، التي هي دعامة الكنيسة وفي الغالب شديدة التديّن.

إضافة إلى ذلك يفترق شرف الناس العاديين عن شرف الطبقات الراقية بكيفية أخرى. فالشرف صفة وراثية وذلك بانتقال العفّة من الأمّ الى الأبناء : فانعدام الشرف عند شخص مّا تمكن نسبته إلى وضاعة ميلاده. وذلك يفسّر ما للشتائم من أثر قويّ، وأشدّها ما يتعلّق بطهارة الأمّ. وأكبر عار بعد ذلك هو عدم عفّة الزوجة. وإذا ما تبيّن، من ناحية أخرى، أن سلوكها معيب، فليس لشرف العائلة حينئذ حام. فالمجموعة العائلية تشارك إذن في

الشرف العامّ. والأبناء لا يرثون فقط عارها، بل إن شرفهم متعلّق بأفعال تنعكس على شرف أبويهم. وشرف البنت ينعكس على شرف أمّها، وبالتالي على شرف الأب. وإخوتها وأقاربها الأدنون يلطخهم بالمثل عار كل واحد من القرناء.

إن المنزلة الإجتماعية تورث، أولا وقبل كلّ شيء، من الأب، الذي يتلقّى منه الإبن لقبه ويحوّله بدوره إلى ذريّته. والمنزلة الإقتصادية للعائلة تتوقّف على قدرة الأب على الحفاظ على أملاكه أو على تنميتها. فالشرف إذن من ناحية كونه حقّا في الوجاهة ينشأ قبل كلّ شيء عن الأمّ. والتمييز يتوافق مع كون الوجاهة شيئا قابلا للإكتساب من خلال فعل على شكل مجازفة ذكوريّة، حيث أنه لا يمكن اكتساب الشرف بل يمكن الحفاظ عليه فقط، وذلك باجتناب السلوك الذي يؤدي إلى هدمه، أي من خلال التحفظ الأنثوي. فالنساء اللاتّي يتخليّن عن الإحتشام لا يعدن خاضعات للعقوبات التي تضبط سلوك النساء الشريفات. إذ يمكن لهنّ التصرّف كالرجال، وممارسة المهامّ التي تمنع منها النساء الشريفات، واستعمال جنسانيتهّن للسيطرة على الرّجال. غير أنهنّ، بنفس الطريقة، يفقدن نفوذهنّ على شرف الرجل. والمنزلة الإجتماعية تساعد أيضا على تحديد قواعد السلوك التي تطبّق على طريقة التصرّف. في حالة نساء الطبقات الراقية فإن الشرف منيع وبالتالي فهو لا يتوقّف على حماية الرجل. فسيّدة المجتمع الراقي يمكن لها التحكّم في الرجل بدون قلب النظام الإجتماعي، لأنّ نفوذها متأتّ من الرتبة الإجتماعية لا من الجنس.

فواجبها الديني وضميرها يحتّمان عليها أن تكون عفيفة وأن تطيع زوجها؛ ولكنها إذا لم تتصرّف بهذه الطريقة فيقال عنها أنها سيئة لا فاجرة.

في القرية (*pueblo*) يسود مثال المساواة في الشرف : والوجاهة المتأتية من الميلاد والمتصلة بالمنزلة الإجتماعية لا وجود لها. وعندما يكون هناك خطر نزاع، فإن الإتصّاف الشخصي بالفحولة يصبح معيارا لتحديد تفوّق رجل على آخر ويسمع حينئذ التلفظ بعبارة «*cojones*». ويمكن أن نضيف ان العنف البدني لا يعتبر طريقة شرعية لبلوغ الأهداف : على كلّ حال، فإنّ الرجل مجبر على الدفاع عن نفسه عندما تتعرّض حقوقه للإنتهاك، وذلك حتى لا يبدو جبانا. وعندما يقع اللجوء إلى العنف فمن المميّز ان كلا الطرفين يعتقد أنه في موقف دفاع، همّهما في ذلك حماية كبريائهما المشروع. وبالتالي فإن التنافس لحوز الإعتبار يدرك حدوده في وجوب احترام كبرياء الآخرين، وهذا صحيح بالنسبة إلى كلّ مستويات البنية الإجتماعية. والشرف الجماعي للقرية (*pueblo*) يعرب عنه التنافس بين القرى (*pueblos*)، الذي يوفّر متنا من الأسجاع والأقوال حيث يتلقى كل فرد توبيخ الأجوار بأكثر الألفاظ بذاءة، وتلوّح بالعار بأساليب عديدة، وأبينها تلك التي تتعلّق بعفّة نسائهم. وهذا الشرف الجماعي، مع ذلك، لا يقع التعبير عنه من خلال سلوك عدائي تجاه الفرد الغريب عن القرية. فالفرد الغريب، على العكس، يمثّل فرصة لإظهار شرف القرية : فكلّ عضو يغدو بالقوّة حاملا لشرف القرية.

وكلّما كانت منزلته الإجتماعية أعلى، كلّما زادت أهميّة رضاه، لأنه بزيارته يشرّف القرية. وخصوصا فإنه مع الزائرين من طبقة الأسياد (*senoritos*) تستعمل الحفاوة الأندلسية التقليدية ؛ والزائر الشعبي ايضا يجب أن يشعر بالرضا، ولكن زيارته مع ذلك تعتبر مريبة. غير أن الإحتراز تجاه الغرباء يصبح سلوكا عاقلا في مجتمع تفقد فيه محكمة الرأي العام للقرية من فائدتها وتنفيذ القانون من فاعليّته.

إنّ القدرة على الإيفاء جزء هامّ من سلوك المجاملة، سواء كان ذلك في سياق الضيافة للغرباء أو في تأكيد التفوّق بين النظراء، أو في إيلاء الحماية لمن هم أدنى. فالإيفاء هو امتياز الرجل الوجيه، نظرا لكون الإيفاء لشخص مّا يجعل هذا الأخير في وضعيّة دنيا. وتظهر الخلافات حول الإيفاء بالحساب عندما لا يتبيّن بوضوح من هو الأعلى وبالتالي من في قدرته المطالبة بحقّ الإيفاء. وذلك يستتبع، من ناحية اهتماما بالإقتناء، ومن ناحية أخرى، إمكانية اكتساب الشرف بمنح ما وقع اقتناؤه بسخاء : إذ لمنح شيء مّا، لابدّ قبل كل شيء من اقتنائه. ونفس الإهتمام باكتساب الشرف عن طريق أعمال الخير أكثر من اكتسابه عن طريق الإمتلاك، يفسّر وجهات النظر المتطرفة هذه : فالشرف في البحر المتوسط يتأتّى فعلا من السيطرة على الأشخاص أكثر من السيطرة على الأشياء، وهذه هي الغاية التي تميّز قيم الإكتساب في الأندلس. والشرف يتنامى بتوطيد النفوذ على الآخرين. فهدفه إذن هو التراكم أكثر من تحويله إلى هيبة من خلال

إعادة التوزيع. وبالتالي فإن جميع مواقف المجتمع الأندلسي - سواء كانت التظاهر أو المرأة أو الخيانة الزوجية أو الشجاعة أو العنف أو الدرجة والإستحقاق أو الشرعية أو الكذب أو رفع الأميّة أو حتى مفهوم الزمن - يمكن أن تفسّر ببساطة باعتبارها قلبا للمعادلة بين الشرف والوجاهة.

يظهر مفهوم الشرف للفرد في إطار يختلف باختلاف موقعه في البنية الإجتماعية ؛ وهذا يفسّر تباين القيم التي تضفى على مختلف جوانبه. إنّ ارتباطه بالنفوذ الإقتصادي والسياسي لا يدرك بنفس الطريقة ممّن يملك أو ممّن لا يملك مثل هذا النفوذ. فمن ليست له القدرة على تشخيص دور السيّد، لا يتنافس مع نظرائه بنفس المستويات، ومنزلته مرتبطة، كما رأينا، بالرأي العامّ، الذي يضع الفضيلة أساسا للشرف أكثر من الوجاهة.
وفي نفس الوقت فإن حياة الفرد محصورة في نطاق مجموعة، وفي وحدة إقليميّة حيث يزيد الجوار في فاعليّة القوانين الأخلاقية للقرية (*pueblo*). وهذا ليس صحيحا بالنسبة إلى الطبقات الراقية التي تحمي رفعتها الإجتماعية شرفها من مثل تلك القوانين. وفاعليّتها تختلف باختلاف حجم المجموعة، إذن فمن المفيد التمييز لا فقط بين مختلف الطبقات الإجتماعية، بل وأيضا بين مجموعة من بضعة آلاف من الأنفار - حيث يمثّل الرأي العام كيانا متلاحما من المعرفة الخاصّة بكلّ فرد من المجموعة - وبين التي لا يعرف فيها من قبل الجميع إلاّ الممتازون. ومع ذلك فإنّه يظل بإمكان

الشخص الذي يتحوّل من مقاطعة الى أخرى، أن يكون غير معروف نسبيا، وبذلك تتضاءل قوّة الرأي العام لأنه لم يعد على علم بكلّ شيء. وإلى هذا السبب بالذات يمكن أن نعزو نقص الإهتمام بالجانب الأخلاقي للشرف في المدن الكبرى.

إجمالا فإن المصطلح الشعبي «*hombria*» (رجولة) يحيل إلى شجاعة الشخص وإلى قدرته على مقاومة المطالبات وانتهاكات أملاكه. والخلاصة أن الرجولة تستتبع الإشارة المباشرة إلى الأساس المادّي للشرف؛ وتشير الى أن أولئك الذين يعيشون حسب هذا المثال لهم خصى (*cojones*)، وهم رجال شرف بينما أولئك الذين لا طاقة لهم على مقاومة الضغط تنقصهم الرجولة وهم حريّون بأن يعتبروا «*mansos*» (خصيانا، أو باستعمال التورية، وديعين). إلاّ أن مفهوم الشرف يختلف حسب الطبقة الإجتماعية ويتغيّر إن كان الشخص يعيش في مدينة صغيرة أو في مدينة كبرى. في مدينة صغيرة يمكن التمييز بين شرف العامّة وشرف الطبقات الراقية : فبينما الشرف مقرون عند العامّة بالإحتشام ومعادل للفضيلة، فإنه عند الطبقات الراقية مقرون بالوجاهة. إذن، فإذا كان الشرف، على المستوى الشعبي يرضي الحاجة إلى حكم مشترك وإلى تأحيد المفاهيم، فإن الحاجة إلى التنظيم الإجتماعي عند الطبقات الراقية تنمّي التمييز.

4. السّراكتسانيون : الشرف والقيم في جبال اليونان الشمالية

أطوار الرجولة الثلاثة

في اليونان كلّها، ربّما قارب عدد السّراكتسانيين - الذين عادة ما يدعوهم الفلاّحون باسم «فلاكي» - 80 ألف نسمة. ولكن السّراكتسانييّن الذين يعيشون وسط «زغوريا» - وهي منطقة جبليّة تقع على الشمال الشرقي من بلدة «جيانّينا» - وهم رعاة يمارسون الإنتجاع، يبلغ عددهم حوالي 4 آلاف نسمة. ويؤكّد «جون كامبل» في كتابه المرجع «الشرف والعائلة والرئاسة» (*Honour, Family and Patronage*) أن السّراكتسانيين يقضون الصيف مع قطعانهم «ويهتمّون كثيرا بأشياء ثلاثة : النعاج والأطفال [...] والشرف». إلاّ أنه في الفصل المخصّص لـ «قيم الهيبة» يبرز أنّ القيمة الأولى عند مجموعة الرّعاة السّراكتسانييّن تتأسّس على «الهيبة الإجتماعية» (*goetro*). وفي سبيل الهيبة لا بدّ من التنافس، حتى ولو كان التنافس رمزيّا أكثر منه فعليّا. ويحدث ذلك لأنه ليست هناك عائلة تبلغ من

الثروة ما يجعلها تحصل على التفوّق من خلال استعمال القوّة فقط. ويوجد بطبيعة الحال تمايز اجتماعي لأن العائلات ليست متساوية أبدا في الغنى.غير أن الرتبة الإجتماعية يجب أن تكتسب لا أن تفرض. والإعتراف بوضع اجتماعي رفيع يجب الحصول عليه بالإمتثال إلى جملة من القواعد المؤسّسة على المثل العليا المشتركة بين المجموعات العائليّة الموجودة ضمن مجموعة السراكتسانيّين. إنّ قيمة الهيبة راسخة في طريقة سلوك السّراكتسانيين، إلى درجة أن تصبح لها أهميّتها في أيّ نوع من اللقاءات العمومية، حيث يمكن لهيبة الفرد أن ترتفع أو أن تنحطّ.

إن للهيبة، حسب «كامبل»، معاني ضمنية مختلفة، وأكثرها جوهريّة هو الزمن، وهو يربطه بالشرف. وهذا النوع من الشرف تمنحه مجموعة السّراكتسانييّن كاعتراف بجدارة الشخص أو المجموعة العائلية. وهو يقابل في العادة القيمة التجارية للشيء أو للخدمة، ويعبّر إذن عن الفكرة العامّة للقيمة، تعبيرا معنويّا أو ماليّا. ويكون الشرف، بالتالي، في خطر عندما تقع إهانة فرد أو مجموعة عائليّة، أو عندما تقع أحداث عنف تؤدي في بعض الأحيان إلى القتل. ويكون الشرف مهدّدا بصفة خاصّة عندما يقع إغواء امرأة أو اغتصابها، وأحيانا عند فسخ خطوبة. نفهم من هذا أن كون الرجال شرفاء يعني عدم تعرّضهم لهذه الأخطار. وكما يؤكد كامبل :

«فالشرف هو إذن حالة مناعة، أي عدم التعرّض لمثل هذه التهجّمات والإهانات والخيانات. ومناعة العائلة أو على الأقلّ الحفاظ على وضعيّتها يقع الإعتراف بها

عندما يبذل الآخرون جهدهم في الإمتناع عن توجيه الإهانة لها بهذه الأشكال المحدّدة».
ويحدث هذا عندما يشعر أعضاء المجموعة الآخرون أنهم مضطرون للإمتناع عن التهجّم على شرف الفرد أو المجموعة العائلية المقصودة، أو عندما يقع الردّ على التهجّمات على الشرف بسرعة ونجاعة.

ورجل الشرف الذي يمتلك مثل هذه المناعة عليه أن يظهر سجايا محدّدة وتاريخ حياته، مثل الأطوار التي تشكّله، هي بصفة عامّة واضحة المعالم. وبالتالي يمكن بسهولة تحديد المظهر والسلوك المناسبين لكل من الأطوار الثلاثة التي تكوّن حياة شخص مّا عاشها بشرف.
والطور المثالي هو طور الراعي الشاب الراشد غير المتزوج «*pallikari*» الذي يمثّل النموذج الكامل لرجل الشرف. وهذا التمييز يتأتّى من كونه أعزب، ومن إمساكه تماما عن العلاقات الجنسية، وبالخصوص من كونه معتدّاً بنفسه وشجاعا ولا يدع أية إهانة أو شتيمة دون ردّ عنيف، حتى ولو كلّفه ذلك حياته نفسها. والحقيقة أنّ حياة مجيدة تحطّمه كفرد، كما يلاحظ كامبل، ولكنّها لا تمسّ من شخصيّته أبدا. ونساء المجموعة الأهليّة يبكينه وينوّهن بشرفه عن طريق الغناء، لأنه فخر العائلة.
إنّ السّراكتساني المتزوّج هو رجل نجح في البقاء على قيد الحياة. وهو أقلّ إصرارا في الدفاع عن الشرف وأكثر ميلا للكذب، وهو بالتالي أكثر تهيؤا للمجازفة بشرفه لأنّ له عائلة عليه حمايتها. أمّا بالنسبة إلى الشاب

الراشد غير المتزوج، فالشجاعة والإستخفاف بالأحداث الإجتماعية والسعي في طلب ميتة مجيدة، هي الصفات التي تعطي لمصيره معنى. وخلافا لذلك فإنّ شرف رئيس جماعة أهليّة يأخذ بعين الإعتبار مصالح المجموعة العائلية. فرئيس مجموعة أهليّة، إذن يمكن أن يكون مضطرا للقيام بتنازلات إزاء كبريائه وإزاء ضميره وذلك لفائدة العائلة. كما يجب، في نفس الوقت، أن يكون ماكرا وحاذقا ومخادعا، وكاذبا إن دعت الحاجة إلى حماية عائلته من عنف الآخرين. واهتمامه بحماية مجموعته العائلية يجعله أقلّ إحساسا بالإهانة، لأن رداً عنيفا من طرفه يمكن أن يؤدّي به إلى موت مبكّر، ويعرّض بالتالي مجموعته الأهلية لعنف الأعداء. وعلى كلّ حال فهو يظلّ بالأساس رجل شرف، وهو دائما مستعدّ لإظهار رجولته (*andrismos*) ويتبجّح بكونه «*barbatos*»، أي «له لحية»، ويرمز ذلك إلى أنّ له «خصيتين كبيرتين هما مصدر قوّته». وعندما يتجوّل ينفخ صدره ليبيّن أنّ اهتمامات العائلة لها الأولويّة القصوى، وطريقته في الحديث فظّة ووجيزة موجّهة إلى تأكيد ذاته أكثر من كونها موجّهة للتواصل.

عند الشيخوخة فقط وبعد أن يحيل الزعامة إلى الإبن الأكبر، يعفي رئيس المجموعة العائلية نفسه من هذه الواجبات الإجتماعية. فحياته إلى ذلك الحين قد وطّدت سمعته ومظاهر كبريائه : والآن يستطيع أن يتيح لنفسه حياة كريمة وادعة. وفي النادر جداً فحسب عندما يقع توجيه إهانات خطيرة لمجموعته العائلية يدفع الشيخ إلى ردّ عنيف. إلاّ أن ذلك قليل الحدوث، لأنّ توجيه إهانة

مباشرة إلى شيخ يعِيب المعتدي أكثر من الضحيّة، كما يمكن أن يحدث لو تعلّق الأمر بشابّ.

الحياء والقيم الأنثويّة

إنّ مجموعة أخرى من المسائل المتعلّقة بالشرف تخصّ السلوك الجنسي للنساء. وكلّها تتفق، على العموم، على أنّ النسّاء لهنّ شرفهنّ الخاصّ ولكنّ على الرجال واجب السهر عليه. والصفة التي تعتبر أولى الصفات أهميّة بالنسبة إلى امرأة هي الحياء (*entrope*)، وخاصّة بالمعنى الجنسي. باختصار يطلب من النساء ان يكون لهنّ نفور عامّ من النشاط الجنسي. ويظهر هذا من خلال هيئة اللباس وطريقة السلوك الموجّهة إلى نفي الخصائص الجنسية الأنثويّة. وكما يبيّن كامبل :

«فالشعر يكون مغطىً بمنديل أسود من القطن، والفتاة التي تسمح لمنديلها بأن ينحلّ مرّات كثيرة، سواء عن حيلة أو عن خطأ، تكتسب سمعة سيئة. [...] والنهدان لا حمّالة لهما كما أن صدار القميص لا شكل له يجسّمهما، ويمنعان فعلا من تبيّن أيّ شكل جسماني مثير. وهي تلبس تنّورة سوداء من الصوف تصل إلى الكعبين. [...] والإنطباع العامّ عنه أنّه ثوب عديم الشكل».

بطبيعة الحال، على الفتاة المقبلة على الزواج أن تكون بكرا ومشهودا لها بذلك. ويجب عليها أن تقضّي أغلب وقتها في إعداد مهرها، وخاصة في حياكة وتطريز

الأقمشة للجهاز - وهو عمل يحجبها عن عيون الغرباء. والسَراكتسانيّون يرون بالفعل أنه من العيب على الفتاة أن ترغب في الزواج من رجل، أو أن تثير رغبته. والفتاة البكر المقبلة على الزواج يمنع عليها العالم الخارجي، وعليها أن تخفي ما أمكنها ذلك من قوّة حافزها الجنسي، الذي أكثر من أي شيء آخر يعرّض شرفها الخاصّ وشرف كل العائلة للخطر. إذن «فالخجل من تعريض الجسم للأنظار حتى ولم يكن أحد حاضرا، يعني أن الثياب الداخليّة البيضاء لا يقع تبديلها إلاّ بعد مدّة طويلة، وأن الجسم بين الرقبة والكعب لا يقع غسله أبدا».

إلاّ أن المرأة لا يمكن أن تظلّ أبدا معزولة حتى بعد الزواج : يجب أن تحافظ على مظهر متواضع وأن تتصرّف بحكمة وأن لا تظهر إلاّ انفعالات متعارفة. وانضباطها ضروري خصوصا لكونها مسموحا لها بالتحرّك بحريّة قريبا. فالمرأة السراكتسانية يجب أن لا ترفع من صوتها علانية في وجه امرأة أخرى أو في وجه زوجها ؛ وأثناء الولادة يجب عليها أن تكتم الأنين والصراخ. ويجب عليها أن تحكم السيطرة على ما من شأنه أن يكون موضوع نقد الآخرين، وبالخصوص في ما يتعلّق بالتواضع الجنسي. وعليها أيضا أن تبدي نفس التحفّظ الحازم حتى في علاقاتها الجنسية مع زوجها. وكما يبيّن كامبل «فالقوّة البدنية والمتانة، على عكس الجمال الرقيق، هي الميزات الجسدية التي تكون محلّ إعجاب في الزوجة وفي الأمّ».

وعلى العموم، فإنّ عائلة الزوج هي التي تحكم على سلوك الزوجة. فعليها إذن أن تطيع زوجها، وعليها في نفس الوقت أن تخزيه إذا ما تردّد. وعلى كلّ حال فإذا ما تصرّف الرجل تصرّفا غير مشرّف فإن جزءا من اللوم يقع على الزوجة، إذ يقال إنه نقصتها الشجاعة الضرورية لتأنيبه «بطريقة تجعله يتصرّف تصرّفا لائقا». وعليها أيضا أن تنجب ذكورا، حتى وان كانت البنت أيضا مرغوبا فيها. وفضائلها ونقائصها تنعكس على أبنائها، وبالتالي ومع مضيّ الوقت فإن معنى الشرف لدى الذكور ومعنى الحياء لدى الإناث - وكذلك شرف الأبناء أنفسهم - يعكس جدارتها كأمّ.

إنّ صرامة القيود التي يجب أن تخضع لها الفتاة، والزوجة الشابّة والأمّ يمكن قياسها بتفحّص كيف تخفّ مثل تلك القيود عندما تشيخ المرأة. في الفترة الممتدّة بين زواج الإبن الأكبر والموت. فالمرأة المتقدّمة في السنّ تكتسب تحرّرا جديدا، سواء من سلطة الزوج أو من القيود الإجتماعية. ويمكنها التنقّل بحريّة بين المتاجر، والتوقّف في الطريق لمحادثة رجال لا ينتمون للعائلة. والكنّة الجديدة هي التي عليها القيام بالواجبات الشاقة عوضها، ويعاملها الأبناء باحترام لأنها صارت الآن السيّدة المهيبة لمجموعة عائلية موسّعة، فتصبح قدوة في الأخلاق ومستشارة للعائلة التي تعود إلى نصائحها في الفترات الصعبة وأوقات الحيرة. إلاّ أنه بموت الزوج فقط أو ببلوغ وقار سنّ الستيّن، تكف المرأة عن تمثيل خطر جنسيّ.

وفي نفس الوقت فإن المرأة الطاعنة في السنّ تثير الخوف لأنها تعرف السّحر وتستطيع العلاج من عين السوء ؛ ويعتقد أيضا أن لعناتها لها تأثير فعّال. وعندما تشتهر امرأة متقدّمة في السنّ بالشرّ فإنه تنسب اليها أفعال شائنة في شبابها. ويقال «إنّ امرأة تستسلم للفجور، تسلّم روحها للشيطان وتظلّ في علاقة حميمة معه».

القيمة الأخلاقية للمجموعة العائليّة

لقد تحدّثنا عن المثل المتصلة بكل واحد من الأطوار الثلاثة في حياة رجل وحياة امرأة سراكتسانييّن، انطلاقا من فترة المراهقة. ولابدّ من الإشارة بصفة واضحة إلى انه نظرا لقلّة عدد الأطفال الضعاف بدنيا الذين يبقون على قيد الحياة عند الولادة، فإن الأغلبيّة قويّة بدرجة تكفي للقيام بالواجبات المفروضة عليهم. والتقسيم الجنسي للواجبات يساعد على خلق ما سمّاه «كامبل» بـ «المتعارضات المتكاملة». فعند السراكتسانيّين لا يحلب النعاج إلاّ الرجال، بينما بصفة عامّة تحلب النساء المعيز.

إن قيم الشرف والحياء قويّة جداً، خاصّة لأن الصغار يرتضعونها من خلال القدوة والنصح. والرجال والنساء سواء بسواء يبذلون ما في وسعهم للتطابق مع النموذج المثالي المتوافق مع جنسهم وسنّهم. ولا يعتبر الرجل شريفا إلاّ إذا عاش في تطابق مع ما يتوقّع من سلوكه الإجتماعي. وظاهرة الشرف وظاهرة الحياء يمكن

اعتبارهما علامة على قوّة الشخصيّة، لأن كلاً منهما يعتبر الأولويّة الأخلاقية المطلقة.وإنّ تحكّم الشخص في مجموعته الخاصّة، يناظر نوعا من السياسة الداخلية التي تعتبر السهر على مناعة المرأة شيئا جوهريّا، وذلك بهدف التوقّي من تشتيت الملكية.

وبالفعل، فإن السراكتسانيين يربطون بين الشرف والثروة، من منظور قبل-صناعي، وبالخصوص من منظور اليونان القدامى الذين كانوا يرون أن الإقتصاد يهتمّ أساسا بتصريف شؤون المجموعة العائلية، بعيدين عن أي مفهوم للنظام الإقتصادي العمومي. فالسراكتسانيون إذن يقيّمون الثروة بتقييم الأقارب : وذلك يعني انه كلّما كانت المجموعة العائليّة أكثر عددا، كلّما كانت امكانيات الحصول على المساندة من طرف المجموعة أحسن. فإن مجموعة قويّة ومتّحدة من الإخوة، قادرة في كلّ الأحوال على أن تساند وتدافع عن مصالحها الخاصّة، مهما كان الثمن، حتّى باستعمال «القوّة البدنيّة». والسراكتسانيّون يعبّرون عن الثروة أيضا على أنّها تنمية قطعان الماشية التي تتيح للمجموعة العائلية أن تعيش في شبه استقلال عن باقي المجموعة، وتمكّنها من أن تكون مضيافة تجاه الغرباء، وأن توفّر مهرا محترما لبناتها وأن تبرم زيجات مربحة لأبنائها. والشرف بهذا المعنى متعلّق بتدعيم النسب وينشأ، إذن، من الثروة ومن منزلة الأجداد. ومع ذلك فالشرف عند السراكتسانيين يتأتّى أيضا من التضامن بين أقرباء الدم. وفي الزواج يمزج الزوج والزوجة دميهما لينتجا «دما» هو دم الأبناء المولودين من قرانهما، وهذا يفسّر

تعظيم العلاقات بين الأقارب الوثيقي الصلّة. والإحساس بروابط الدم قويّ إلى درجة أنه «يقدّم الدواعي والموافقات، في ضمير الفرد، لإنجاز الواجبات الثقيلة والتي لا محيد عنها، الناشئة عن الإنتماء للعائلة». وبالتالي «فالرجل أذا كان نسبه غير شريف، فإن دمه «لا يلتهب» للإهانة [...] فالدم، إذن، متصل أوثق اتصال بالشجاعة».

إنّ الدور الرئيسي الذي يسنده السراكتسانيّون إلى قيم الشرف والحياء مرتبط بتضامن المجموعة العائلية من ناحية، وبالمنازعات المستمرّة بين المجموعات التي لا تربط بينها روابط الزواج أو الدم من ناحية أخرى. وذلك راسخ في الإيمان المشترك بأن «كلّ ما يمسّ عضوا في العائلة أو يؤذيه فإنه يمسّ أيضا شرف وحياء الآخرين. فليس هناك فاعل اجتماعي يبقى منعزلا أو من غير انتماء لعائلة مّا». والرجال مجبرون على الدفاع عن شرف بعضهم البعض والدفاع عن شرف نسائهم. والنساء في نفس الوقت يحافظن على شرف رجالهنّ بالتحلّي بالحياء وبذلك يحمين عفّتهن أيضا. وذلك يتيح للعائلة السراكتسانية تنمية الإحساس بالتضامن بين أعضائها، الذين غالبا ما يضطرّون للتعاون للعناية بقطعانهم. وليس إلاّ في الحالات النادرة حقّا التي يتعرّض فيها شرف مجموعة السراكتسانيين كلّها للإهانة في شجار مع الغرباء، يوحّد الرجال غير المتصاهرين قوّتهم في سبيل القضية المشتركة. ومع ذلك فحتّى عندما تكثر التحالفات القويّة بين المجموعات المختلفة، فإنّ الدور

الهامّ الذي يؤديه الإخلاص للمجموعة لا يتأثر بالعلاقة مع الغرباء. وبطبيعة الحال، فالعائلات تشعر بالحاجة الدائمة إلى مواصلة الحذر من الغرباء. ويمكن أن نختم بقول إن حماية الشرف تعتبر ضرورة أساسية في الشؤون اليوميّة ولا يمكن أبدا اعتبارها فقط مجموعة من المثل يؤمن بها السراكتسانيّون بلا تبصّر. فالوجود المعنوي والمادّي للرعاة السراكتسانيين المنتجعين يتوقّف على قدرة الرجال في أيّ مجموعة عائلية على الدفاع عن أنفسهم ماديّا تجاه أي نوع من الإهانة أو الإساءة.

5. الشرف في المجتمع البدوي

الخصائص الأخلاقيّة للبدو

إنّ البدو من أولاد علي هم بالأساس، مثل السراكتسانيين، قبائل من الرعاة. وقد نزحوا في بداية السبعينات، مع نعاجهم وجمالهم نحو المراعي الصحراوية، ولكن القسم الأكبر منهم استقرّ للزراعة والسّكن في شريط ساحلي على طول الحدود الشمالية للصحراء الليبيّة، بين منطقة الإسكندرية في مصر والحدود الليبيّة. هذه القبائل هي موضوع دراسة أحاديّة شاملة لـ «ل. أبو لغد»، «المشاعر المحجوبة : الشرف والشعر في المجتمع البدوي» (L. Abu-Lughod, *Veiled Sentiments : Honour and Poetry in a Bedouin Society*). تهتمّ بالمكانة التي يحتلّها الشرف في مجتمعات السواحل الجنوبية للبحر المتوسّط. والدراسة تعتمد على بحث أجري على الميدان بين سنة 1978 و1980.

إنّ البدو من أولاد علي مسلمون أتقياء يمارسون تعدّد الزوجات. وخلافا للسراكتسانيين الذين هم مسيحيّون

أرثودوكس وأحاديّو الزوجة والذين يعتبرون أن المجموعة العائليّة تلعب دورا أوّليّا هامّا بالنسبة إلى الفرد، فإن المجموعة الأهليّة البدويّة تعدّ ما بين ثلاثة أعضاء وخمسة وعشرين عضوا، وتبدو أكبر من المجموعات الأهليّة التي يصفها «كامبل». وكما هو من خصائص القسم الأكبر من المجتمعات الإسلامية فإنّ البدو يعتبرون قرابة الدمّ تلك المتأتية من قرابة العصب (القرابة من نسل الذكور) أو السلالة ويؤكدون أنهم ينحدرون من جدّ واحد من نسل أبويّ.

إن المجموعات السكنية الحالية نشأت من مضارب الخيام التي كانوا يعيشون فيها قبل أن يستقرّوا بصفة دائمة، ومعظم التجمّعات العصرية تستمدّ اسمها من النسب أو من قرابة العصب التي تشكّل نواتها. وأهمّ شيء هو أن العلاقات الإجتماعية تتأسّس على النسّب الأبوي. ومع ذلك، فإنّ كلّ مجموعة يمكن أن تضمّ الأقارب الأحماء (أي أقارب القرين) أو الأباعد، كما تضمّ أيضا عائلات تابعة، دون روابط قرابة. وبالفعل فإن بدو أولاد علي يتعاملون مع مجموعة من الأقارب أكبر بكثير ممّا هو الشأن لدى السراكتسانيين.

وتؤكّد «أبو لغد» أنّ للدّم دورا أساسيا في عالم أولاد علي الإجتماعي. فالدم يصل الأشخاص بالماضي ويربطهم بالحاضر؛ وهو جوهريّ في تحديد الهويّة الثقافيّة وهو الذي يوثّق الأصل أو السّلالة، ولذلك يبدو أساسيّا بالنسبة لهويّة البدو. وهم يصرّون على تمييز أنفسهم عن المصريّين، ويعتبرونهم من «دم مختلط

وغير نقيّ»، ويؤكّدون على أهميّة سلالتهم لأنهم يعتقدون أن نبل الأصل يخوّل صفات خلقية وسجايا. ولإبراز تفوّقهم يؤكّد البدو أن المصريّين أدنى منهم لأنهم يمارسون الفصل بين الجنسين بطريقة متسامحة جداً ؛ إضافة إلى ميل الأزواج والزوجات إلى اعتماد سلوكات حميمة وذلك بصفة علانية. وهذه التصرّفات العاطفية «تفسّر على أنها علامات على ضعف الرجال المصريّين وعلى خلاعة نسائهم». وإلى جانب ذلك فهم يعتبرون الرجال المصريّين قليلي الرجولة لأنهم يظهرون، علانية، تعلّقا شديدا بنسائهم. ويضاف ذلك إلى وقاحة النساء المصريّات وعدم شعورهن بالحياء. ويميّز بدو أولاد علي بين القريب (قريب الدم) والغريب (الأجنبي). ويحدّد البدو إيديولوجية القرابة الدمويّة بطريقتين اثنتين. في المحلّ الأوّل، كلّ أقرباء الدم يشتركون في جوهر يحدّدهم. والمنتمون إلى نفس النسب لهم نفس الدم واللّحم. وبالتالي، فمطابقة الواحد للاخر تسمح لمجموعة النسب أن تشعر بقرب بعضها لبعض. والكلمة التي تعبّر عن رابطة الدّم هي «القرابة» التي تحيل في النظرة البدوية للعلاقات الإجتماعية، بصورة أساسية، إلى النسائب، أي إلى من هو مرتبط بسلالة ذات نسب أبوي ولها جدّ مشترك. ولهذا السّبب فإن بدو أولاد علي - يميّزون قانونا للشرف شديد الإتصال بأهميّة روابط الدّم، وبالصفات الخلقية التي تخوّلها قرابة الدم. وينتج عن ذلك أن الفعل الشائن لأحد الأعضاء يلحق العار بباقي المجموعة العائلية أيضا ؛ كما يستفيد الجميع من أمجاد نسيب مشترك أو جدّ من نسب أبوي. إن التبرير

المنطقي سواء للإنتقام أو للقتل أو لجريمة الشرف (حتّى وإن كانت في الواقع نادرة جداً) هو أن الإهانة الموجّهة لفرد ما أو الفعل الشائن لشخص ما، تصيب المجموعة كلّها، لا الفرد فقط.

وتلاحظ «أبو لغد» أن المثل الأعلى الأساسي للبدو هو «الإستقلال أو الحريّة، [اللذان هما] المعيار الذي تقيّم به المنزلة الإجتماعية ومن خلاله يتحدّد نظام المراتب». وكما هو الشأن بالنسبة للسراكتسانيين فإن القيمة السائدة مرتبطة بمثل المساواة. فالرجال والفئات الإجتماعية والأنساب يعتبرون متساوين إلاّ إذا ما ارتفعوا عن الأغلبيّة بدرجة عالية أو انحطّوا عنها كثيرا. وعلى مستوى مادّي، فإن هذا يعكس صعوبة تكديس الثروات الطائلة في أرض يغلب عليها القحط وقلّة الموارد. هنا لا تنال الوجاهة إلاّ من خلال رفعة الأخلاق. والثروة يمكن أن تكون علامة جيّدة على الرفعة ولكنها لا تؤكّد النجاح. ومن ناحية أخرى فالأصل عنصر هامّ في قانون الشرف. وكلمة شرف تستتبع جملة من القيم التي من الممكن لرجل فاضل أن يرثها. والقيم الموروثة هي بالأساس الكرم والأمانة والنزاهة واحترام العهد والوفاء نحو الأصدقاء. إلاّ أن القيمة الأكثر أهميّة هي أن يكون المرء حراً. وهم يعتقدون أن الحريّة تمتلك بإظهار الثقة في النفس والشجاعة، ومن خلال الكبرياء والتحكّم في النفس والقوّة. وقد وجد بيار بورديو (Pierre Bourdieu) مطابقة مماثلة بين صفة الثقة وصفة القوّة لدى رجل الشرف في منطقة القبائل. والتحدّي، حسب بورديو هو

طريقة لتزكية الشرف عند الفرد، وذلك بالإعتراف بجدارته بأن يتحدّى. وهو يصلح أيضا لاستثارة الردّ. وعدم القدرة على الردّ ورفع التحدّي يؤدي إلى فقدان الشرف.

وبدو أولاد علي من ناحيتهم يحرصون كثيرا على سمعتهم، وبالتالي فأصحاب المراتب في المجموعة عليهم أن يهتمّوا بكلّ جزئية في سلوكهم، وذلك باعتبار أن الشخص كلما كان شرفه أعظم، كلّما كانت مسؤوليّاته أكبر. ومهما كان المستوى في النظام الإجتماعي فإن من واجب الأقوياء احترام وحماية الضعفاء دون اعتبار انّ الأمر يتعلّق بأتباع لا تربطهم بهم صلة قرابة، أو بأقارب فقراء، أو بنساء أو شبّان أو أطفال أو حتى مجانين. والأعيان الذين يمثّلون المجتمع يأخذون أتباعهم بعين الإعتبار لأن سمعتهم تعتمد بقدر كبيرعلى هؤلاء الأخيرين. والأتباع يستجيبون لسلطة الشيوخ أكثر من استجابتهم لقانون جائر.

ثمّ إنّ البدو، حسب أبو لغد، يربطون الشرف بالتواضع والحياء ،أكثر من ربطه بالإحتشام. فالتواضع مثال مناسب للنساء، ولكنّه ليس مقصورا عليهنّ، لأنّه يوجد عند كلّ من كان في وضع تبعيّة. وتنشأ المشاكل عندما يحاول بدو من منزلة اجتماعيّة دنيا أن يوفّقوا بين وضعهم الخاصّ وبين انتسابهم الذاتي للشرف باعتبارهم بدوا. وأعضاء المجموعة هؤلاء يمكن أن يتوفّر لديهم «الأصل» - أي نبل المحتدّ أو السلاّلة، وهو هامّ جدا بالنسبة إلى أولاد علي - ولكنّهم ليسوا قادرين على

تحقيق كلّ قدراتهم لأنهم ليسوا مستقلّين ذاتيا. في مثل هذه الحالات، ولفضّ الإشكال، فإن البدو من ذوي المنزلة الدنيا يلتجئون، بصورة طبيعيّة، إلى قانون التواضع، فيظهرونه عن طواعية ، دون إلزام من طرف البدو ذوي الدرجةالرفيعة؛ وبالتالي فعليهم الشعور بالحياء والقيام ببوادر الإحترام المترتّبة عنه.

إنّ الكثير من المثل في المجتمع البدوي مشترك بين كلّ الأعضاء؛ مهما كان أصلهم. ويمكن أن نتوقّع في بعض الحالات أن يظهر عضو تابع أيضا سجايا نوعيّة يختصّ بها البدو المستقلّون. وعلى الأعضاء التابعين أن يكونوا، من بين أشياء أخرى، عنيدين وصارمين، وشديدي الثقة بأنفسهم، ومبادرين وكرماء مع الضيوف. وتجاه أولئك الذين يكون الرجل، وفي الغالب المرأة، تابعين لهم - أي الرجل المستقلّ - فإن الأتباع ليسوا في وضع يسمح لهم بالنزال من أجل الشرف الصّميم. وعلى الذكور الشبان إظهار التواضع أمام آبائهم، والذكور النسائب، وايضا أمام الإخوة الكبار. وعليهم كذلك إظهار الإحترام لأغلب الرجال الأكبر منهم سنّا (إلاّ إذا كانوا من طبقة الأتباع)، ونحو النساء الشابات وكبيرات السنّ.

وضعية المرأة

إنّ الوضعية الدنيا للمرأة تساعد على إلقاء الضوء على الهيمنة الإيديولوجية للنسب الأبويّ في الهويّة الإجتماعية وفي العلاقات داخل المجتمع البدويّ.

فالمرأة تحتفظ بروابطها القبليّة مدى الحياة، وفي حالة الخلاف مع أقرباء الزوج يجب عليها أن تنحاز إلى المجموعة العائلية التي ولدت فيها. والمرأة تعتمد دائما على السند المعنوي والقانوني والإقتصادي أحيانا، لأبيها وإخوتها والأقارب القرباء الآخرين، القادرين على أن يؤمّنوا لها حقوقها الماديّة وأن يضمنوا حمايتها حتّى ولو كانت تعيش بعيدا عن عائلة الميلاد. وبما أنّها تبقى دائما مرتبطة بذوي رحمها فإنّ سلوكها يتّصل بشرفهم وسمعتهم. فأقرباؤها هم في نهاية الأمر المسؤولون عنها أكثر من الزوج، ولهم القدرة على معاقبتها على ذنوبها، بما في ذلك الزّنا. ومع ذلك فلئن ظلت المرأة عضوة في مجموعة النسب الأبوي، فإنّ على أقاربها تقاسم التحكّم فيها ومراقبتها مع الزوج وأقاربه القرباء. وهذه الوضعية تفسّر كيف أن الناس في عشيرة زوجها يشيرون إليها بنسبها الأبوي، وهي بالتالي تعامل على أنها غريبة. ومع أنّ المرأة لا تستطيع أن تندمج في نسب زوجها، فهي تنجح في ضمان الأمن والرفاهية عندما يبلغ أبناؤها الذكور سنّ الرشد. وعند وفاة زوجها تصبح رئيسة المجموعة الأهليّة، وارتباطها الوثيق بأبنائها الذكور يتيح لها أن تكون ربّة الأسرة.

إلاّ أنّ الذكروالأنثى متعارضان بصورة رمزيّة في الذهن البدوي. فتعريف الإناث، فوق كلّ شيء، مرتبط بدورهنّ في الإنجاب أكثر من المظهر الإجتماعي للأمومة. والظواهر الطبيعيّة المتصلة بهنّ تضمّ الحيض، والإنجاب والجنس. وتظهر هذه الخصائص من خلال ألوان ثيابهنّ، وخاصّة عادة استعمال الحزام الأحمر الواسعة الإنتشار،

في حين أن لباس الذكور يعبّر أكثر عن طابع ثقافيّ وديني للرجال.
إنّ كون النساء مرتبطات بالطبيعة ينظر إليه كعقبة تحول بينهنّ وبين الوصول إلى نفس العيار المعنوي للرجال. وإذن فإن افتقار النساء للإستقلال عن الطبيعة يخلّ بفضيلتهنّ. وهذه النظرة مرتبطة بالرأي الشائع عن دونيّة النساء.
وينصّ على حالة تبعيّة المرأة قانون اللباس الذي يقضي، زيادة على عادة الحزام الأحمر، بأن يكون الوجه مغطىّ بخمار. ويجب على المرأة أن تخفي شؤونها ومشاعرها ؛ وعليها أن تتّخذ هيئة صارمة أمام من هو أرفع منها، وأن تلزم الصّمت، إلاّ إذا خوطبت، وأن لا تنظر أبدا في عينيّ من هو أرفع منها مقاما. باختصار، عليها تجنّب الإتّصال بمن هم أرفع منها إلاّ في حال الضرورة المطلقة. وهذا النموذج السلوكي عند البدو هو بمثابة القاعدة التي تطبّقها النساء طواعية.
وهذا يجعل البدوي يعتبر أن الفصل بين عالم الرجال وعالم النساء ليس ناشئا عن مجتمع مقصور على الذكور، بل هو طريقة الضعفاء والتابعين في الردّ على الأقوياء. وهذا يمكن أن يكون قد ساهم في توليد شعور بنقص التقدير لما يتصل بعالم النساء. وهكذا وقع إبعاد النساء عن الرجال ماديّا واجتماعيا.
والرجل الذي يحتاج إلى النساء يدعى «أهبل» أو «حمار». إلاّ أنّ أكبر ازدراء هو موجّه إلى الرجل الذي لا يكتفي بإظهار أنه عبد لشهواته الجنسية، بل ويعرّض استقلاله للخطر باعترافه بأنه خاضع لامرأة بعينها. وفي

مثل هذه الحالات تنقلب موازين القوى الصحيحة بين الجنسين. ويتخلّى الرجّل بفعله ذاك عن القيادة ويفقد شرفه، بسبب انعدام ثقته في نفسه مع النساء أو بسبب تعلّقه الشديد بامرأة واحدة.

يمنع على النساء بلوغ الشّرف التّام، ليس فقط بسبب وضع التبعيّة الذي هنّ عليه، بل أيضا «لقربهنّ من الطبيعة». ففي المرأة قوى لا يمكن التحكّم فيها، بما في ذلك الحيض والجنس. وباختصار فإنّ بدو أولاد علي يعتقدون أن هذه العوامل تمنع المرأة من فهم المثل العليا للشرف.

والحيض يفسد فضيلة المرأة لأنه يضرّ بتديّنها ؛ فهو أحد أكبر العقبات بالنسبة إلى النساء، لأنهنّ، في الإسلام، يعتبرن نجسات وعندما يكنّ في هذه الحالة فهنّ لا يستطعن الصلاة. وزيادة على ذلك فالعرف الإسلامي يقتضي انّ النساء عندما يكون لديهنّ الحيض، لا يحقّ لهنّ دخول المساجد ولا لمس المقدّسات، وبالخصوص القرآن. وحتى صومهنّ غير مقبول أثناء الحيض الذي يدنّس الإناث من سنّ البلوغ إلى سنّ الإياس.

وفي الجملة فإن الجنسانية الأنثويّة تهدّد كامل النظام الإجتماعي المركّز على الذكر. ولأنّ النساء شديدات الإرتباط بالجنس لقدرتهنّ على الإنجاب، فهنّ لا يمثّلن تشخيصا للنظام الإجتماعي - كما يفعل ، على عكس ذلك، حكماء القبيلة - بل يمثّلن نقيضه. باختصار، فإنّ النساء، بالطبيعة، غير طاهرات، بينما الرجال مقرونون رمزيّا بالطهارة.

ونظرا إلى أن الشرف يبلغ بتجسيد القيم الثقافية، فإنّ النساء يعتبرن أدنى ثقافيا. وينتج عن ذلك أنّه بسبب نشاطهنّ الجنسي، فالنساء خاضعات بالطبيعة للرجال. ويتبيّن هذا بوضوح في النظرة البدويّة للحمل، ويعتبر بدو أولاد علي أن النساء أثناء الحمل لا يتحكّمن في أجسادهن، كما يبدو ذلك بكلّ جلاء، وأنه يجب السيطرة على انعدام ذلك التحكّم. ورغم اعتبار الولادة شيئا ايجابيا لأنها تنتج أطفالا، وهم موضوع تقدير وترحيب من طرف البدو، فإنها تعتبر أيضا نجسة. حتى أن بعض الرجال يرفضون أكل الطعام الذي طبخته أمّ حديثة الوضع.

وعلى النساء، حسب قانون الشرف، أن يعملن كلّ ما في وسعهنّ للتحكّم في أنفسهنّ، وخاصّة في ما يتعلّق بالحبّ والشهوة الجنسية، لأنهما يستطيعان أن يبلغا بالرجل إلى التبعيّة للمرأة، وإلى العار. وفي الجملة فإنه ينظر للجنس باعتباره تهديدا محتملا للمجموعة بأكملها ويمكن أن يفسّر هذا لماذا يقع تفضيل الزواج بين الأقارب.

الشرف والزواج

تعتبر المجتمعات الشرق الأوسطية أن الزواج بين أعضاء من نفس المجموعة العائلية يقوّي النّسب. وغالبا ما تقدّم الفتاة زوجة إلى واحد من أبناء عمّها، وهكذا «تندمج رابطة الزواج في الرابطة السابقة عليها والأكثر شرعية التي هي رابطة القرابة». وترى النساء في هذا الإتفاق

الزوجي مزايا عديدة. فهنّ كزوجات يشعرن بأنفسهنّ آمن وأقوى إن هنّ تزوّجن رجلا من أقرباء الأب، لأنهنّ يمكثن بين أولئك الذين من الواجب عليهم حمايتهنّ. ويكنّ أقلّ احتياجا لأزواجهنّ، لأنه في استطاعتهنّ طلب الدّعم من الميراث المشترك. ومن ناحية أخرى فهنّ يشعرن بالراحة داخل المجموعة، نظرا لكونهنّ يعشن بين أقرباء يشاركنهنّ في المصالح والأحبّاء والمشاعر الأخرى. وحتىّ عندما ينتهي هذا النوع من الزواج بطلاق فليس من الضروري أن تترك النساء أبناءهنّ.

ويميل هذا النوع من الزّيجات إلى أن يكون أكثر ودّا لأنه مبنيّ على تجارب التقارب منذ عهد الطفولة، وذلك في مجتمع تكون فيه العلاقات بين أعضاء غير أقرباء من الجنس الآخر محدودة جدّا. وينتج عن ذلك أنّ النّساء المتزوّجات برجال لهنّ معهم روابط متينة من النّسب، يعاملن معاملة تختلف عن معاملة الأخريات.

وبعد الزواج يكتسب الزوج الجديد نوعا جديدا من السلطة ويمتلك قدرا من الحرّية. وباختصار فهو يكتسب درجة من الإستقلال الذاتي عن أنسبائه. وتشرح «أبو لغد» أنّ «والد الزوج، عند بدو أولاد علي، وأعمامه المتقدّمين في السنّ، لا يحضرون حفل خطوبة أو حفل زواج ابن أو ابن أخ». ومن الواضح أن المجال الذي يخلقه الزوج لنفسه يحدث خللا في السّلطة داخل مجموعة النّسب. إلاّ أنّ الزّوج لا يكتسب بالزواج استقلالا اقتصاديا، بل هو يدخل زوجته في مجموعة الأب العائلية الموسّعة.

ويملك بدو أولاد علي وسائل مختلفة لمراقبة الضرر المعنوي الذي يمكن ان تحدثه النساء من خلال جنسانيّتهنّ. أحد هذه الوسائل هو الزواج من الأقارب ؛ والثاني هو قانون التواضع. فهم يرون أنّه على النساء تخفيف ما من شأنه أن يهدّد البنية الإجتماعية كلّها. إذن فأولاد علي يعتقدون أن عفّة المرأة تبنى من خلال نفي طاقتها الإنجابية. فمن خلال الحياء تستطيع المرأة أن تضبط جنسانيّتها وأن تعيد لها الإعتبار. وبالتالي فعليها أن تبلغ الزواج وهي عذراء.

وبعد الزواج عليها أن تنكر أيّ اهتمام بالجنس أمام من هم أرفع منها، وأن تتجنّب الإتصالات مع أي رجل كان، لا ينتمي إلى مجموعتها العائلية. والمرأة البدوية لا تخفي فقط جنسانيّتها، بل إنها تبدي احترامها الشديد لكلّ من هو أكثر منها تمثيلا للشّرف. ويتأتى ذلك من خلال استعمال الخمار الأسود. فالإحترام هو بالتأكيد مفتاح القانون المرتبط بالخمار. والفتيات يشرعن في حمل الخمار عند الزواج، أي حين بداية نشاطهنّ الجنسي، كما يعتقد ذلك، وينزعنه عندما يترمّلن. والنساء يستترن بالخمار حين يقع احراجهن بإشارات جنسيّة أثناء الحديث؛ ولكنهن يستترن، بصفة خاصّة، أمام الرجال. وفي العادة يحتفظن بالخمار أمام من له عليهنّ سلطة، أو أمام من كانت له مسؤوليّات اجتماعية كبيرة، مثل الآباء والأقرباء المسنّين والإخوة الأكابر الذين يمارسون قيادة المجموعة الأهليّة، وأمام غير الأقرباء الأكبر سنّا والغرباء الأكبر سّنا أيضا. وفي حال المثالين الأخيرين، فإنه في الإمكان أن يظهرن ليس فقط

احترامهن لمن له مسؤوليات كبيرة، بل وأيضا تجسيدهنّ لشرف النسب كلّه. وإذ يستترن حينما لا يكون أحد من أقربائهنّ حاضرا، فالنساء يظهرن بذلك تواضعهنّ - وهو عنصر أساسيّ في هيبة الشيوخ داخل المجموعة العائليّة.

إنّ الشّرف والتواضع مرتبطان من وجهة النظر الجدليّة لدستور الشّرف للمجموعة العائليّة النّسبيّة عند البدو. فالعائلة لها شرف عندما يكون رجالها «أصيلين»، أي عندما يجسّدون الفضائل البدويّة. وهذه الفضائل تقتضي توفير الدّعم والحماية لمن هو تابع لهم. وفي نفس الوقت يجب أن يلهم التواضع سلوك النساء وسلوك كلّ الذين هم في وضع التبعيّة. وفي ذلك تزكية للنظام المراتبي الذي بمقتضاه يطالب الرّجال بمنزلتهم الرفيعة في المجموعة البدويّة.

وإذا لم يفلح الرجال في تأدية واجباتهم، فإن النساء يفقدن شرفهنّ ؛ والعكس بالعكس، فإذا لم تقم النساء بواجباتهن أو لم يقم به التابعون، فإن الرجال يفقدون شرفهم. وباختصار فإن كلّ أعضاء المجموعة العائلية مسؤولون عن الشرف الذي يتجسّدون فيه باعتبارهم أقرباء.

6. نظرة شاملة

إنّ الأنثروبولوجيّين في البحر المتوسّط غالبا ما عبّروا عن الشرف تعبيرا ماديًا، مركّزين على المناعة الجسدية وعلى قوّة الذكر. وقد طوّر «أنطون بلوك» فكرة أن العنصر الجوهري في قانون الشرف في البحر المتوسط هو الثقة في النفس. وهو يؤكّد أنه إذا ما ألحق الضرر بشرف شخص ما، فإن الطرف المتضرّر لا يمكنه تعويض ذلك بالإلتجاء إلى مؤسّسات الدولة. فالقيام بذلك يعني اللجوء إلى نظام أجنبي لا يساعد على محو الوصمة عن شخصيّته الإجتماعيّة، ولا يعينه على جبر ذلك في المواجهة وجها لوجه مع من أهانه. وإذا ما تعرّضت سمعته إلى الإساءة فعلى الطرف المتضرّر أن يصلح الوضع بصفة شخصيّة من خلال سلوك يعتبر مستقيما من طرف الأعضاء الآخرين في المجموعة.ويصف «بيار بورديو» جوهر الإهتمام بالدفاع عن الشرف على أنه شكل من أشكال استحقاق الإحترام «الذي يحدّد بالأساس في بعده الإجتماعي، والذي يجب بالتالي اكتسابه والدفاع عنه أمام الجميع».

والشرف الذكوري مقرون دائما في صقليّة بالعدوان وبالقوّة الجسديّة. فالرجل الحقيقي، في صقليّة، هو «رجل ذو خصيتين كبيرتين» تستند عليهما قوّته الجنسيّة. وحتى عند السراكتسانييّن في اليونان، يجب على الذكر البالغ أن «يكون مزوّدا كما ينبغي بخصيتين»، وأن يكون مستعداً لتلبية الرغبات، نهما في النشاط الجنسي. وتصحّ نفس المفاهيم أيضا بدرجة كبيرة بخصوص اسبانيا وخاصّة الأندلس حيث يقال إنّ الرجل الحقيقي يجب أن تكون له خصيتان كبيرتان. وهؤلاء الرجال ذوو الخصي الكبيرة يسمون بطبيعة الحال ويسيطرون على رفاقهم الأقلّ منهم «جهازا» والأكثر فتورا. وعلى العكس،لا تبدو هذه الإعتبارات جديرة باهتمام كبير في المجتمعات الإسلاميّة، لأن الشهوة الجنسية الجامحة تعتبر في الإسلام مهلكة وغير أخلاقية بالنسبة إلى كلا الجنسين، كما يبيّن ذلك مثال بدو أولاد علي.

إن الحجم غير المألوف للخصيتين هامّ للوصول إلى فهم أعمق للأصل الإجتماعي لمفهوم الفحولة في البلدان المحيطة بالبحر المتوسّط. ومع ذلك، فبالرغم من الإعجاب الكبير بالجسارة الجنسيّة فإن ما يطلب من الرجل ليس الغزوات النسائية المتعدّدة بقدر ما يطلب منه نثر بذرته. فالهدف النهائي،إذن، هو الإنجاب وليس مخالطة النساء. وبالتالي فتمجيد الرجولة في البحر المتوسّط يعبّر بالخصوص عن أهميّة إنجاب الذريّة (مع تفضيل الذكور). وبعبارات أخرى فإن الدّور الرئيسي للرجّل على مستوى المجموعة هو تكوين عائلة واسعة

وقويّة. والرجل المتزوّج الذي لا أبناء له يصبح، في اسبانيا الجنوبية، موضع احتقار، ولئن كان لذلك أثره السلبي سواء على مكانة الرجل أو المرأة، فإن تبعة العقم تقع كليّا على الرجل وليس على المرأة، لأنه على الرّجل في مثل هذه الشؤون واجب المبادرة.

إنّ سمعة الرجل مرتبطة أشدّ الإرتباط بالتزاماته العائليّة. والرجل الذي يتهرّب منها يتخلّى عن اتّسامه بالإحترام والرجولة. ولئن كانت نساء البحر المتوسّط يعملن غالبا مقابل جراية، فالمنتظر من الزّوج أن يحمل إلى البيت القسط الأكبر من الدّخل العائلي. وقدرة الرجل على إعالة زوجته وأبنائه عنصر أساسيّ في شرفه وهو هامّ بقدر أهميّة مراقبة جنسانيّة زوجته.
هناك تباينات على المستوى الجهوي بخصوص الطّرق المتّبعة في مراقبة جنسانية النساء. ففي البحر المتوسّط المسيحي يعهد بمسؤولية شرف النساء، في الجانب الأكبر، إلى الزوج والعائلة. وعلى عكس ذلك، في المناطق الإسلاميّة، كما هو الحال عند بدو أولاد علي، فإن رجال العائلة الأصليّة للمرأة، هم أوّلا وقبل كلّ شيء، الذين يتولّون صيانتها أخلاقيا.
فالرجال، إذن، مجبرون على العمل لتموين وإعالة الأسرة. والتضحية في سبيل العائلة تعتبر مساهمة لا محيد عنها في المجموعة الأهليّة وتشكّل عنصرا أساسيّا في مفهوم الشرف في البحر المتوسّط.
وأخيرا، فالشّرف يتعلّق بأداء الرجل لدوره على أحسن ما يرام، وذلك بالدفاع عن العائلة مهما كان الثمن. وهذا

ما دفع جاين شنايدر إلى تأكيد أنه في البحر المتوسّط «فالشرف باعتباره ايديولوجية يساعد على دعم هويّة مجموعة [عائليّة] وتوثيق ولاء الأعضاء الذين لولاه لكان مشكوكا في إخلاصهم. فالشرف يرسم الحدود الإجتماعية للمجموعة مساهما في حمايتها من مطالبات المجموعات المتكافئة معها والتي هي في تنافس معها».

يميل الإتنوغرافيون إلى تصوير ظاهرة الشرف والحياء باعتبارها خاصيّة متأصّلة في مجتمعات البحر المتوسّط. وكلّ الدراسات تقريبا تتركّز على جنسانيّة المرأة كنقطة أساسيّة في شرف وحياء المجموعة. وتميل هذه الدراسات إلى إظهار كيف أنّ شرف العائلة نقطة حسّاسة جدا وتجب حمايته مهما كان الثمن. وبالتالي فإن هذه المجموعات تقيم مثاليّات جنسيّة تقرن الشرف بالرجل والحياء بالمرأة. ونجد هذا التصوّر لدى السراكتسانييّن في اليونان الشمالي، والغلانديين في جزيرة كريت، الذين درسهم ميكائيل هرتزفالد (Michael Herzfeld)، وكذلك عند قبائل الجزائر الذين درسهم بيار بورديو.

وتميل المجموعات الثلاث إلى تفخيم جانب التباري في الشرف، ممّا يجعل التغاضي عن الردّ على أقلّ إشارة مهينة، في حدّ ذاته، عارا. والتأكيد، إذن، يقع على عذريّة الفتاة قبل الزواج وعلى عفّة المرأة المتزوّجة. وباختصار فإنه على النساء من كلا الصنفين ان يكنّ معزولات عن المجال العمومي، عندما يكون شرف العائلة المتّحدة أكثر تعرّضا للخطر.

إلاّ أنه توجد مجموعات متوسّطية أخرى لا تتركّز فيها المسائل المتعلّقة بالشرف على عفّة النساء. وتبيّن «جوليات دي بولاي» (Juliet du Boulay) أن بقاء المرأة عذراء حتى الزواج ليس جوهريا على الإطلاق، إذا ما فقدت عذريتها مع زوجها المقبل، ويمكن تعويضها بفضائل أخرى مثل السخاء أو مهر كبير. وبنفس الطريقة، فالعذريّة أقلّ أهميّة عند النسّاء اللاتي يشتغلن خارج المجموعة العائليّة. وباختصار فإنه من الصعب جدا تحديد الشرف في البحر المتوسّط في العفاف الجنسي. والخلاصة، على كلّ حال، أن الشرف لا يكتسب معناه إلاّ إذا كان متّصلا بالحياء. وهذا التفخيم للشرف الذكوري باعتباره واجبا عائليّا، يبدو واسع الإنتشار في البحر المتوسّط إلى درجة أن جون ديفز (John Davis) في استعراضه الهامّ الشامل للأدبيات المتوفّرة ، يوافق على نظرة «جاين شنايدر» التي تعتبر أن الشرف الذكوري يتأتّى من العمل والنشاط الإقتصادي، ولكن أيضا من حياة جنسيّة نشيطة. ويؤكد ديفز أن «الشرف يتصل أساسا بالعلاقة الجنسية [...] ولكن تأدية الأدوار مرتبط بالموارد الإقتصادية، لأن إعالة أسرة والعناية بالنساء، والإحتفاظ بالأتباع أيسر إذا لم تكن العائلة فقيرة».

وأخيرا، فإن واجب الرجال في الثأر لشرفهم الجنسي يختلف من مجتمع ينظر إلى الأعمال الثأرية باعتبارها واجبا أخلاقيا، إلى مجتمعات أخرى حيث، إضافة إلى أن القانون يعاقب فيها الأعمال الثأرية، تعتبر تلك الأعمال، وخاصّة في مجتمع معقّد، أعمالا همجيّة وبدائية.

إنّ مفهوم الشرف يستتبع ان الهويّة مرتبطة بالأساس بالأدوار المؤسّساتية. والهويّة من ناحيتها مرتبطة ارتباطا متينا بالماضي الذي يشترك فيه كلّ أعضاء المجموعة المعنيّة، والذين يستمدّون منه الأصالة. إن هذه الطريقة في فهم عبارة «الشرف» تختلف من سنّ إلى أخرى ومن منطقة جغرافية إلى أخرى. إنّ الهجرة المكثّفة من الأرياف وتراكم الرجال والنساء في مدن البحر المتوسّط الكبرى، ساعدت على زيادة جهل الناس لبعضهم البعض. وقد أصبحت هذه الظاهرة واضحة خصوصا أثناء الثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين. والدور الذي كان يلعبه الشرف، والذي كان في ما مضى أساسيا، يمكن أن يتغيّر في إطار حضريّ متوسّطي عصريّ.

7. التمدين وتغيّر دور الشّرف

إنّ الشرف والحياء لهما مكان خاصّ في الأدبيّات الأنثروبولوجيّة حول البحر المتوسّط، ولكن جذورهما، بالأساس، غائرة في نموذج من النظام الإجتماعي الرّيفي الذي لا يبدو دائما قابلا للتطبيق على الحياة الحضريّة. ويؤكّد جون باريستياني (John Peristiany) أنّ «الشّرف والحياء هما اهتمامان دائبان للأفراد الذين يعيشون في مجتمعات مغلقة ذات أحجام صغيرة، حيث تكتسي العلاقات الشخصية المباشرة أهميّة كبرى، خلافا لما هو عليه الحال بالنسبة إلى العلاقات بين النّكرات».

ومع ذلك، فإنه يبدو أنّ النظرة التقليدية لباريستياني ليست دائما صحيحة. غير أنّه، نظرا لكون العقدة المركزيّة لظاهرتي الشّرف والحياء تنبني على طهارة المرأة، فمن المناسب ملاحظة كيف يتغيّر دورهما بتغيّر أسلوب الحياة المختار لمواجهة سياق حضريّ.

والمسألة الجوهريّة، في هذه الحالة، تتعلّق بدخول المرأة ضمن القوّة العاملة الحضريّة. وعادة ما تضطرّ النساء

الشّابات في إيطاليا واسبانيا وكذلك في اليونان، إلى البحث عن أيّ وظيفة، وغالبا ما تقتصر على العمل المنزلي أو في المصنع، وذلك في السنوات السّابقة للزواج أو قبل الحمل، الذي يتيح لها، في العادة، فرصة الإنقطاع عن العمل. ومع ذلك، فلئن كنّ معرّضات للعمل خارج البيت، فليس من الواضح أن النساء يمارسن حياة أكثر تحرّرا من عقبات الموانع التقليدية ممّا تفعل رفيقاتهنّ في الريف.

في كتابتها عن حياة النّساء المتزوّجات في منطقة «بيريوس» تلمّح روني ب. هيرشون (Rene B. Hirschon) إلى كون وقت النساء في المدينة أكثر ضيقا، لأنه يستنفد في الشؤون المنزليّة، التي تعتبر التزاما نحو العائلة، في حين يقضي الرجال وقتهم، على عكس ذلك، في المقهى. فالتقاسم الجنسي للواجبات، إذن، يوجد في المدينة كما يوجد في اليونان الريفي. ونجد نفس الوضع بسهولة في إيطاليا الجنوبية وفي الأندلس وفي المراكز الحضريّة لشمال إفريقيا. ويبدو أنّ العمل الصّناعي ساهم في تغيير القيم التقليديّة ولكنّه لم يؤدّ إلى حرّية المرأة.

ويمكن التأكيد على أنّ الجنس قبل الزواج لم يعد موصوما بصرامة كما كان في الستّينات، ولكن الإهتمام بالشرف حافظ على دوره الأساسي بين القيم الشعبيّة للمناطق الحضريّة المتوسّطية.

ويوضّح جون ديفز مدى الأهميّة التي يكتسيها الشرّف في بلدة «بيستيتشي» (Pisticci)، في إيطاليا الجنوبية. وهو يبيّن كيف أنّ سلوك الفرد في بلدة مّا تقع ملاحظته من قبل عدد كبير من الأشخاص مقارنة بالقرية.

وبالتالي، فالرجل الذي يرفع عاليا شرف أسرته - وخاصّة الشرف الجنسي لنسائه - يحظى بأعظم عرفان وإذن بحياة أكثر أمانا ضمن المجموعة الحضريّة. وعلى نفس المنوال، نجد في تقرير «هيرشوم» حول لاجئي «بيريوس» أنّ الشرف الجنسي يحتلّ موقعا على غاية من الأهميّة في مجموع القيم المحليّة.

وفي كلا المثالين يعتبر شرف الرّجل مرّة أخرى حسّاسا لجنسانيّة المرأة، إلاّ أنه، في حالة اليونان، لا يبرز التمييز بين الجنسين بنفس القدر، نظرا لأنّه على النساء أن يشتغلن خارج البيت. غير أن اختيارهنّ لأنواع الشغل متأثّر جدا باعتبارات الشّرف.وكما هو الحال عند بدو أولاد علي فالشرف في هذه الحالة أيضا، يمكن التعبير عنه بعبارات المناعة والإستقلال، وهذا يفسّر لماذا تفضّل النساء، أكثر من أيّ شيء آخر، عملا في مصنع بأجر بخس. وهذا يفسّر جزئيا لماذا تكاثرت في «بيريوس» المؤسّسات الصغيرة ذات الطابع العائلي. وباختصار فإنّ الخصائص الجوهريّة لإسناد الشّرف مرتبطة بالجنس في المدن الصغيرة أيضا : أي أنّ هناك قواعد مختلفة، خصوصيّة بالنسبة إلى الرجال وبالنسبة إلى النساء.

8. ملامح عامّة

يمكن أن نختم بأنّ الشرف في الثقافات المتوسّطية هو معيار القيم الأخلاقية والإجتماعية للفرد أو للمجموعة العائليّة. والذي يجتهد في الحفاظ عليه يشعر بصفة خاصّة أنّ مفهوم الشّرف مصدّق عليه في تقدير الرأي العامّ. والذي كان محلّ نقاش في ما يتعلّق بالشرف، يشير إلى أنّ التمييز بين المشاعر الخصوصيّة والمشاعر العموميّة، بين الجوانب الموضوعية والجوانب الذّاتية للظاهرة، كثيرا ما يبدو غامضا. ويؤكّد جوليان بتّ ريفرز أنّ «الشرف المشعور به يصبح شرفا معلنا والشرف المعلن يصبح شرفا مدفوع الثمن» وذلك في غالب الأحوال.

يبدو من المناسب عند هذا الحدّ أن نفحص دور الشّرف في المجتمعات العصريّة. إلاّ أنّه لابدّ، لتقييم أهميّة دور الشّرف في الوقت الراهن، من فهم التغيّرات التي هي بصدد إحداث أثر دائم في المجتمعات المتوسّطية الحاليّة.

وقد رأينا أن التعلّق بالشرف يبرز تقليديًا في أشدّ مظاهره في جريمة الشّرف. وهذه الأخيرة غالبا ما ترتكب ردًا على إهانة خطيرة أو في حالة استمرار عداوة، أو أخذا بالثأر أو عقابا على الخيانة الزوجية من طرف المرأة أو على الفجور. إلاّ أنّه من الصعب العثور على معلومات موثوقة عن حالات من هذا النوع، ومن يرتكب جريمة شرف غالبا ما لا يقع تتّبعه. ومن يتسبّب في إهانة لغيره، ربّما يقع تتبّعه لأسباب أخرى. وقد يقع أن تصاغ الوثائق الرّسميّة بأسلوب غامض، متجنّبة في الغالب استعمال عبارة الشرف.

لقد وقعت دراسة الشّرف على الأكثر من طرف الأنثروبولوجيين الذين كانوا، إلى وقت قريب، يميلون إلى التركيز على المجموعات غير المنتمية إلى المدن، على سكّان القرى أكثر من سكّان المدن وعلى الفقراء أكثر من الأغنياء. وقد لقي سقوط الشّرف أو غيابه في قطاعات محّددة من المجتمع قدرا قليلا جدًا من الإهتمام. ولذلك فمن السّهل افتراض أن الشرف والحياء لا يتماشيان مع المجتمعات بعد العصرية وبعد الصناعية، إذ أنّ هذه الأخيرة تقوم على البيروقراطية غير الشخصّية وعلى اقتصاد السّوق، وعلى قوانين سلوك كونيّة وعلى الإتصالات الجماهيريّة وانتشار القراءة والكتابة وعلى إجلال الفرد وعلى الثورة الجنسيّة وانعكاسات العولمة. ومن ناحية أخرى فمن الصعب أن نبيّن بأيّ طريقة ساهم كلّ واحد من هذه العوّامل في سقوط قيمة الشرف في العالم الحديث.

ومع ذلك فإنّ الإشارات إلى بعض الأصناف الخاصّة من العنف توحي بأن العداوات القائمة على تصوّر مّا للشّرف لا تزال تلعب دورا هامّا في بعض المراكز الحضريّة، كما هو الحال مثلا في إيطاليا الجنوبية. ففي أغلب المدن الصقليّة، كما في التجمّعات الحضرية بجهة «كمبانيا»، توحي أخبار جرائم القتل بين العصابات الإجراميّة المتنافسة بأن العداوات الثأريّة ما زالت قويّة جداً. وأخبار مشابهة في أنحاء أخرى من البحر المتوسّط تؤكّد فكرة أنّ «قانون الصّمت» (*omerta*) لا يوجد فحسب في المجموعات الرّيفيّة أو القرويّة الواقعة في ضواحي مدينة أكبر، مثلما هو الحال في سردينيا أو في كريت أو في مواقع متقدّمة مشابهة. ومن ناحية أخرى فإن بعض التراتيب القضائية المتوسّطية ما زالت تبدي تسامحا نسبيّا في ما يخصّ جرائم الشرف. ويمكن أن يتوسّع هذا حتى يشمل شعوبا بأسرها، كما هو الحال في الإنتفاضة الجارية بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين. فأعضاء كلا المجموعتين يتّخذون شرف المجموعة ذريعة للمشاحنات والثارات الجارية، وخاصّة عندما تندلع المعارك، في الأراضي الفلسطينية، بين الإسرائيليين والمجموعات الفلسطينيّة المحليّة.

إذن، فرغم وجود خصائص متواترة، فإن الدّلالة الدقيقة للشرف والمدى الصّحيح للسلوك المشرّف يتميّزان من مجموعة إلى أخرى. والدراسات الإتنوغرافية يمكن أن تساعد بالخصوص على تقييم عبارة الشرف من زوايا متعدّدة وعند مختلف المجموعات الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسّط.

وتختلف التصوّرات والقيم المتغايرة للشرف من مجتمع إلى آخر ولا يوجد أي مجموع من المبادىء يكون قابلا لأن يطبّق عليها كلّها معا.

فيمكن أن نلاحظ أنّ بعض المجموعات لها مثل مرتبطة بالجنس في ما يتعلّق بالشّرف. وبعض المجموعات، مثل السراكتسانييّن والقبائل في الجزائر، تعظّم في الشّرف الجانب الجدالي وقابليّة ردّ الفعل، حيث يعتبر التغاضي عن الردّ على أقلّ إشارة مهينة في حدّ ذاته عارا. وآخرون يعادلون بين الشّرف وفضائل أخرى مثل كرم الضيافة. ولا بدّ من أن نضيف أنّ قيما متعارضة أيضا ترتبط بالوضع الثقافي والإقتصادي للمجموعة المعنيّة. فبعض المجتمعات تساوي بين الأفراد في إسناد الشّرف، بينما في أخرى يتلازم الشرّف مع الثروة. ومع ذلك فالنقطة الجوهريّة المشتركة لأغلب الدراسات الإتنوغرافية حول الشرف في البحر المتوسّط تركّز على جنسانية المرأة باعتبارها العنصر الرئيسي للشرف والحياء في نفس الوقت. وتعتبر جنسانيّة المرأة أيضا نقطة الضعف التي تجعل شرف العائلة أكثر تعرّضا للخطر وأشدّ حاجة للحماية. وخلاصة القول انه مازال في البحر المتوسّط اقتناع عامّ بأنه يجب على الفتيات أن يكنّ عذراوات وعلى النسّاء المتزوّجات أن يكنّ عفيفات. إلاّ أن هناك وضعيات، بالخصوص في التجمّعات الحضرية، ليست فيها عفّة المرأة أو عذريّتها قبل الزّواج ذات أهميّة جوهريّة إذا ما فقدتها مع الزوج المقبل. وفي بعض المجموعات، حيث تشتغل النساء، عامّة، خارج المجموعة الأهليّة للمساهمة في الدخل العائلي، ليس

من الغريب اعتبار فقدان البكارة قابلا للتعويض بفضائل أخرى، كالسخاء مثلا. ويمكن في هذه الحالة أن نجد توجّها عامّا له دلالته الخاصّة في الفكرة المشتركة القائلة بأن النساء غالبا ما يندمجن في عالم الشغل لخدمة مصالح العائلة أكثر من متابعة آفاق مهنيّة شخصيّة.

وإذن يصبح من الصّعب جدّا تقديم تعاريف ذات فعاليّة للشرف في البحر المتوسّط. ومع ذلك يمكن التأكيد بكلّ ثقة بأن ظاهرة الشّرف والحياء كانت لها آثار واسعة المدى في قيم كلّ البلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسّط. وفعلا، فالشرف والحياء ليسا مفهومين يقع الإنتساب إليهما انتسابا شكليّا فحسب. فهما في أماكن مثل إيطاليا الجنوبية وإسبانيا وفرنسا واليونان وإفريقيا الشمالية ومنطقة الشرق الأوسط، مازالا يؤثران تأثيرا عميقا على طريقة تسيير الحياة اليومية، ويتداخلان مع القيم الثقافية والدينيّة الأخرى.

إن تحليلا مختصرا لكتب ومقالات قليلة حول الموضوع لا يمكنه أن يجزم بأنه يمثّل الدراسات حول الشرف تمثيلا كاملا. فعمل «أبو لغد» يدرس مجموعة خاصّة من البدو ولا يمكن أن يمثّل كلّ المجموعات البدويّة. ونفس الشيء بخصوص السراكتسانيين في دراسة كامبل الذين صاروا مستقرّين وغيّروا قيمهم الثقافية منذ الفترة التي تمّت فيها الدراسة الإتنوغرافية. وكذلك الأمر بخصوص الدراسات التي أجريت في الستينات حول إيطاليا الجنوبية والأندلس. فالدراسات المنشورة منذ

عشرات السّنين، لا يمكن أن تقدّم إشارات متكاملة بالنظر إلى درجة التشابه التي يمكن ملاحظتها في المناطق الجغرافية القليلة التي وقع استطلاعها.
ومع ذلك فرغم كلّ الإختلافات التي تمّت الإشارة اليها، فإنه تبرز خصائص مشتركة، حتى وإن بدت النظريّات العامّة غير ملائمة. ويمكن أن نقول ان الشرف والحياء يظهران فعلا ذلك النوع من الوحدة الهشّة التي يمكن أن نتوقّع وجودها في كامل المنطقة. والإتنوغرافيّون، خاصّة أولئك الذين أمكن لهم التحاور مع دارسين محليّين، يشيرون إلى أن الشّرف والحياء قيمتان تحظيان باعتبار كبير في كلّ البحر المتوسّط. وتحليلنا العامّ المختصر للشّرف في هذه المنطقة يؤكّد ذلك.

بيبليوغرافيا

Abu-Lughod, Lila, *Veiled Sentiments: Honour and Poetry in a Bedouin Society,* Berkeley - Los Angeles - Londra 1986.

Bell, Rudolf M., *Fate and Honor, Family and Village : Demographic and Cultural Change in Rural ; Italy since 1800,* Chicago 1979.

Black-Michaud, Jacob, *Cohesive Force: Feud in the Mediterranean and te Middle East,* Oxford 1975.

Blok, Anton, *The Mafia of a Sicilian village 1860-1960. A study of violent peasant entrepreneurs,* Cambridge 1974.

Blok, Anton, «Rams and billy-goats: a key to the Mediterranean code of honour», *Man. Journal of the Royal Anthropological Institute,* xvi, 1981, 427-40.

Bourdieu, Pierre «The sentiment of honour in kabyle society» in John G. Peristiany, ed., *Honour and Shame: The Values of Mediterranean Society,* Londra 1956, 191-241.

Bourdieu, Pierre, «The sense of honour» in *Algeria 1960: Essays by Pierre Bourdieu,* Cambridge 1979.

Campbell, J.K., *Honour, Family and Patronage,* Oxford 1964.

Davis, John, *Land and family in Pisticci,* Londra 1973.

Davis, John, *People of the Mediterranean,* Londra 1977.

du Boulay, Juliet, «Lies, mockery and family integrity» in John G. Peristiany, ed., *Mediterranean Family Structures,* Cambridge 1976, 389-406.

Giovannini, Maureen, «Female chastity codes in the Circum-Mediterranean: comparative perspectives» in David D. Gilmore, ed., *Honor and Shame and the Unity of the Mediterranean,* Washington DC 1987, 61-74.

Herzfeld, Michael, «Honour and shame: some problems in the comparative analysis of moral systems», *Man. Journal of the Royal Anthropological Institute,* xv, 1980, 339-51.

Hirschon, Renée B., *Heirs of the Greek Catastrophe,* Oxford 1989.

Peristiany, J.-G., ed., *Honour and Shame: The Values of Mediterranean Society,* Londra 1965.

Pitt-Rivers, Julian, «Honour and social status» in J.G. Peristiany, ed., *Honour and Shame: The Values of Mediterranean Society,* Londra 1965, 19-77.

Pitt-Rivers, Julian, *The Fate of Shechen or the Politics of Sex,* Cambridge, 1977.

Schneider, Jane, «Of vigilance and virgins», *Ethnology,* ix, 1971, 1-24.

Schneider, Jane & Peter Schneider, *Culture and political economy in Western Sicily,* New York 1976.

Anthropology Department, State University of New York at Stony Brook.

Associazione Internazionale per lo Studio delle Civilta Mediterranee, Istituto Universitario Orientale, Napoli.

Centre National de la Recherche Scientifique, Parigi.

معهد البحوث المغاربية المعاصرة (I.R.M.C)، تونس

مركز الدراسات المغاربية، تونس العاصمة

(Centre d'Etudes Maghrébines, Tunis)

Centre d'Études Historiques sur la Mediterranée Contemporaine, Université de Provence, Aix-en-Provence.

Départment d'Anthropologie, Université Paris X, Nanterre.

Department of Sociology and Anthropology, University of Amsterdam.

École Pratique des Hautes Études, Parigi.

Facoltà di Scienze Sociali, Università di Atene.

London School of Economics and Political Science.

School of Anthropology, Harvard University.

School of Anthropology, University of Oxford.

طبع بالجمهورية التونسية في فيفري 2004

مؤلفات منشورة

1. ع. كرمان، الطاقة وتوزيعها
2. ع. سيد أحمد، تيّارات التبادل في البحر الأبيض المتوسط
3. ب. هـ. ستال، البحر الأبيض المتوسط. الملكية والبنية الإجتماعية
4. م. الشادلي، القصّة الشعبية في محيط البحر الأبيض المتوسط
5. ج. كامبس، البربر
6. ب. كايزر، البحر المتوسط. جغرافية التصدّع
7. أ. بيريللي، الإستقرار البشري والمشاهد الزراعية
8. د. سرايوفيتش، الإلّيريون والتراقيون
9. م.ح. فنطر، الفنيقيون بناة المتوسط
10. ج.ف. تروان، حواضر المتوسّط. مدن الوصل، مدن الحدّ
11. أ. الكراوي، اقتصاديات دول المتوسط. التحديات الكبرى
12. غ. كامبس، العصر الحجري الحديث في منطقة البحر المتوسط
13. ع.ل.-ي. بن آشنهو، المحيط والتّنمية في البحر المتوسط .
14. م. مارين، الأندلس والأندلسيّون
15. م. قويدتّي، تكوين الشعوب الأوروبية، القرن الخامس – القرن العاشر
16. ج. دونيني، الأقليّات في منطقة البحر المتوسط
17. ب. سكارنيكيا، الموسيقى الشعبيّة والموسيقى الراقية
18. ك. كسّار، في معنى الشرف
19. م. فيارو، الأندلس : معارف ومبادلات ثقافية

للحصول على كلّ المعلومات الخاصّة بالعناوين المنشورة
أو التي ستصدر بالعربية الرجاء مراسلة :

أليف- منشورات المتوسط
44، نهج النيجر – 1002 تونس

منشورات زرياب – الجزائر

دار الفرجاني
شارع غرة سبتمبر، طرابلس ـ ليبيا